11

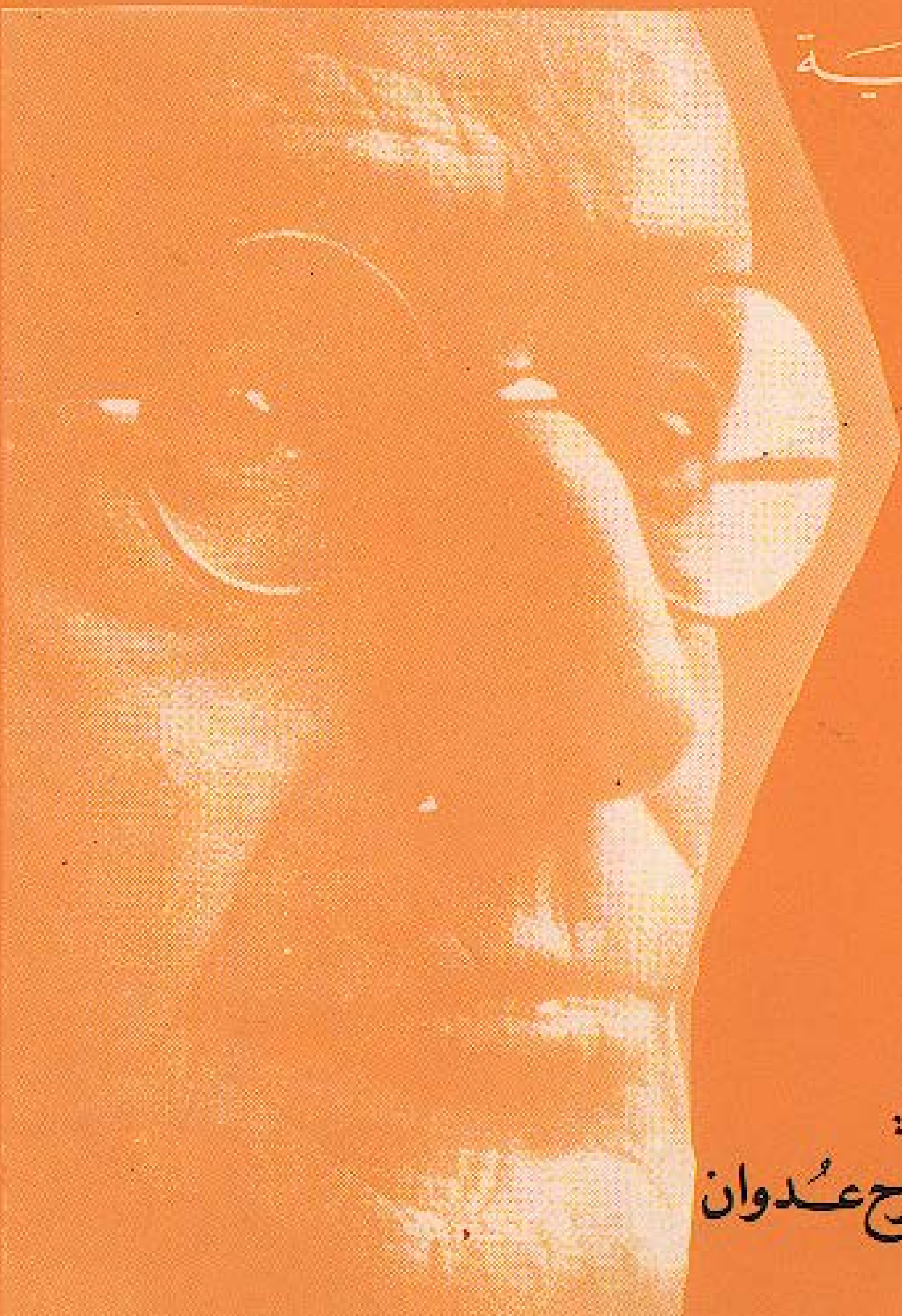
هرمان هيسه

الحائز على جائزة نوبل للآداب ١٩٤٦

دميان

قصة شباب إميل سنكلير

رواية



ترجمة:
ممدوح عدوان

منارات

هرمان هيسّه

دميان

قصّة شباب إميل سنكلير

رواية

ترجمة :
ممدوح عدوان

المدارات

هذه هي الترجمة الكاملة لرواية :

DEMIAN
HERMANN HESSE
Bantam Modern Classic
1968

الطبعة العربية الأولى
١٩٨٩

دار منارات للنشر
ص.ب : ٩٢٥٠٦٢
هاتف : ٦٦١٣٢٨
عمّـان ـ الأردن

تصميم الغلاف : «منارات»
خطوط الغلاف زهير أبو شايب

ولد هرمان هيسه عام ١٨٧٧ في كالف، على حافة (الغابة السوداء).

أرسله ذووه الى مدرسة تبشيرية حيث كان من المفترض أن يدرس ليصبح رجل دين. ولقد أدّت عذاباته الدينية ومعاناته، التي قام بتسجيلها في معظم رواياته، الى هروبه من معهد مولبورن للاهوت عام ١٨٩١؛ إذ لم يتحقق له هناك الشفاء الروحي الناجع لدى لاهوتي ضليع مشهور ومؤمن، ووصل به الحد الى محاولة الانتحار.

وعمل إثر طرده من المدرسة العُليا في أكثر من مكتبة لسنواتٍ عدة - وكان هذا هو العمل الذي مارسه، عادة، معظم الكّتاب الألمان الناشئين.

كتب في البداية ونشر مجموعة قصائد وخواطر ومقالات حول الموسيقى والأدب والفن، الى أن نشر روايته الأولى «بيتر كامينسند» (١٩٠٤) مصوراً فيها شاباً يرحل عن قريته الجبلية السويسرية ليصبح شاعراً. ثم اتبعها برواية «تحت العجلة» (١٩٠٦)، وهي حكاية تلميذ لم يكن ليتواصل على الاطلاق مع معاصريه وأبناء جيله، غادر مدرسته هارباً عبر مدن مختلفة.

ووقعت الحرب العالمية الأولى محدثةً صدمة مروعة، فانضم هيسه الى داعي السلام واللاعنف رومين رولاند ليشاركه في النشاطات المضادة للحرب - غير مكتف بكتابة الكراسات والروايات، بل قام بتحرير جريدتين مختصتين بأسرى الحرب الألمان.

وفشل زواج هيسه الأول خلال تلك المرحلة (انعكس هذا في روايتيه «كنولب» - ظهرت لها ترجمتان بالعربية، الأولى في بغداد لمحمد زفزاف والثانية في بيروت لكامل يوسف حسين -، و «روسشالد» ثم عكف على دراسة أعمال فرويد، وخضع في نهاية المطاف للتحليلات النفسية تحت اشراف يونغ، وأمضى بعض الوقت في احد المصحات للمعالجة

رحل عام ١٩١٩ الى سويسرا ليستقر هناك، ولينجز كتابة روا- «دميان»، التي عكست استغراقه وانهماكه الكامل بآليات اللاوعي وبطرائق التحليل النفسي وشكّل الكتاب نجاحاً هائلا جاعلا من هيسه اسماً مشهوراً في كل أوروبا

حوّل عام ١٩٢٢ اهتمامه نحو الشرق الذي زاره عدة مرات قبل الحرب، وكتب رواية عن بوذا بعنوان «سدهارتا» ـ دار منارات. عمان. ١٩٨٥ ترجمة ممدوح عدوان ـ وفي عام ١٩٢٧ كتب «ذئب البوادي» ـ دار ابن رشد. بيروت. ١٩٧٩ ترجمة النابغة الهاشمي ـ التي وصف فيها رجلاً تتنازعه الغرائز الحيوانية من ناحية، وفروض الاحترام البورجوازي من ناحية أخرى. ثم نشر عام ١٩٣٠ «نرسيس وجولدماند»، التي أشير الى انها «أعظم روايات هيسه» ـ كما نوهت بذلك النيويورك تايمز ـ، والتي عالجت علاقة الصداقة القائمة بين كاهنين قروسطيين /من القرون الوسطى/، أحدهما قانع بدينه، والآخر متشكك بلانهاية وباحث عن السلام والخلاص من الخطيئة

نشرت «رحلة الى الشرق» عام ١٩٣٢ ـ دار ابن رشد، بيروت. ١٩٨١ ترجمة ممدوح عدوان ـ، ولم يظهر عمل أساسي حتى عام ١٩٤٣، حين أنجز رائعته «لعبة الكريات الزجاجية» ـ دار الكاتب العربي القاهرة. لا ذكر لسنة النشر ترجمة د. مصطفى ماهر ـ، التي مكنته من نيل جائزة نوبل للأدب عام ١٩٤٦

عاش في عزلة تامة في مدينة مونتانيولا السويسرية حتى وفاته عام ١٩٦٢، إثر حلول عيد ميلاده الخامس والثمانين

«لم أكن أريد إلا أن أعيش وفق الدوافع التي تنبع من نفسي الحقيقية. فلم كان ذلك بهذه الصعوبة؟».

تمهيد

لا أستطيع أن أروي قصتي دون العودة، طويلاً، إلى الوراء. ولو أمكن لعدت إلى ما هو أبعد ـ إلى السنوات الأولى لطفولتي، وحتى وراءها، إلى ماضي الأسلاف البعيد.

حين يكتب الروائيون الروايات يميلون إلى اتخاذ موقف شبه رباني من موضوعاتهم، متظاهرين بالادراك الكامل للقصة، لحياة الإنسان التي، لذلك، يستطيعون اعادة حكايتها مثلما يستطيع الله ذاته ان يفعل، ودون أن يقف شيء بينه وبين الحقيقة العارية، القصة الكاملة التي تحمل المعاني في كُل تفصيل فيها، وأنا عاجز عن فعل ذلك عجز أي روائي، على الرغم من أن لقصتي من الأهمية، بالنسبة لي، ما يزيد على أهمية قصة أي روائي له ـ فهذه قصتي أنا، إنها قصة رجل، ليس مُخْتَرعاً ولا محتملاً ولا مُقَرَّباً من المثالية، ولا بالتالي، شخصاً غائباً، بل هي قصة كائن فريد من نوعه ومن لحم ودم. ولكن ما يتشكل منه الكائن البشري الحي الحقيقي يبدو أقل إمكانية للفهم، اليوم، منه في أي وقت سابق، والناس بالتالي ـ الذين يمثل كل منهم تجربة فريدة وقيمة في ما يتعلق بالطبيعة ـ يتم الإطلاق عليهم بالجملة اليوم. فإن لم نكن إلا كائنات بشرية فريدة، واذا كان من الممكن إنهاء كل منا برصاصة واحدة إلى الأبد، فإن حكاية القصص ستفقد كل

هدف لها. لكن كل انسان أكثر مما هو بنفسه؛ إنه أيضاً يمثل النقطة الفريدة، النقطة الخاصة جداً والهامة دائماً والمتميزة، التي تتشابك عندها ظواهر العالم، الأمر الذي يحدث مرة واحدة فقط بهذه الطريقة ثم لا يحدث بعدها أبداً. وهذا ما يجعل قصة كل إنسان هامة وخالدة ومقدسة، وهذا ما يجعل كل إنسان، طالما أنه يعيش وينفذ ارادة الطبيعة، مدهشاً وجديراً بكل تقدير. في كل فرد تحولت الروح الى لحم، وفي كل انسان يعاني الخلق، وفي اعماق كل شخص يُثبَّت الفادي على الصليب بالمسامير.

قلة من الناس، في أيامنا هذه، يعرفون ما هو الإنسان. وكثيرون يحسون بهذا الجهل فيموتون بسببه، بسهولة كبيرة، وبالطريقة ذاتها التي سأموت بها حالما أكمل هذه القصة.

وأنا لا أعتبر نفسي أقل جهلاً من معظم الناس. لقد كنت، وما زلت، باحثاً. لكنني توقفت عن توجيه أسئلتي إلى النجوم والكتب؛ وبدأت أصغي إلى التعاليم التي يهمس لي بها دمي. وقصتي ليست قصة مفرحة. فهي ليست بالقصة الحلوة أو المتوافقة، كما هو الحال في القصص المخترعة؛ إن لها طعم الهراء والتشوش، طعم الجنون والأحلام ـ مثل حياة كل من يتوقف عن خداع نفسه.

حياة كل إنسان عبارة عن طريق نحو نفسه، محاولة على طريق كهذا، تلميح نحو الممر. لم يسبق لانسان ان كان نفسه تماماً وبشكل كامل. لكن كل انسان يحاول ذلك ـ هذا بطريقة خرقاء وذاك بطريقة بارعة؛ كل حسب ما يستطيع وكل إنسان يحمل آثار ولادته ـ لُزوجة ماضيه البدائي وقشوره ـ وتظل معه حتى آخر أيامه. هناك من لا يصير بشراً أبداً، يظل ضفدعاً، سحلية أو نملة. وهناك من هو إنسان في نصفه الأعلى وسمكة في نصفه الأسفل. كل انسان يمثل مقامرة من قبل الطبيعة لخلق إنسان. ان لنا جميعاً أصلاً واحداً هو أمهاتنا؛ وجميعنا جئنا من الباب ذاته. لكن كلاً منا ـ بخبرات الأعماق ـ يجاهد للوصول إلى مصيره. يستطيع كل منا ان يفهم الآخر؛ لكن أياً منا لا يستطيع أن يشرح نفسه إلا لنفسه.

١ ـ عالمـــان

سأبدأ قصتي بتجربة حدثت معي وأنا في العاشرة عندما كنت في المدرسة اللاتينية في بلدتنا الصغيرة.

ما تزال حلاوة أمور عديدة في ذلك الحين تثير فيَّ الأسى؛ حارات معتمة وأخرى حسنة الإضاءة، بيوت وأبراج، أجراس ووجوه، غرف مترفة ومريحة، دافئة ومسترخية، غرف حبلى بالأسرار. كل شيء يحمل أريج الألفة الدافئة، والخادمات والأدوية المنزلية والفواكه المجففة.

عالمـا الليل والنهـار، عالمـان مختلفان جداً قادمان من قطبين متقابلين، وممتزجان في ذلك الحين. كان بيت والديَّ يشكل عالماً؛ لكن حدوده ضيقة، فهي لا تضم سوى الوالدين. وكان هذا العالم أليفاً بالنسبة لي في كل شيء تقريباً ـ أم وأب، حب وصـرامـة، سلوك مثـالي ومـدرسـة عالم من البهاء والنقاء والنظافة والأحاديث اللطيفة والأيدي المغسولة والملابس النظيفة والأخلاق الحميدة. ذلك هو العالم الذي كانت تُنشد فيه أناشيد الصباح ويحتفل فيه بأعياد الميلاد. خطوط وممرات مستقيمة تقود نحو المستقبل؛ كان هناك الواجب والذنب، الضمير الرديء والاعتـراف، الغفـران والقـرارات الصـائبة، الحب والاحترام والحكمة وكلمات

الإنجيل. فإذا كان المرء راغباً في حياة نظيفة ومنتظمة فانه واثق من تحقق ذلك في الارتباط بهذا العالم.

إلا أن العالم الآخر، الذي يتجاوز نصف بيتنا، كان مختلفاً جداً، رائحته مختلفة، ولغته مختلفة، يعد ويطالب بأمور مختلفة. كان هذا العالم الثاني يضم الخادمات والعمال وقصص الأشباح وشائعات المباذل. يسيطر عليه مزيج صاخب من الأشياء المريعة والخادعة والمخيفة والغامضة وبينها المسالخ والسجون، السكارى وبائعات السمك الصاخبات، بقرات تلد عجولاً، وخيول تموت غرقاً، وحكايات عن اللصوصية والقتل والانتحار. هذه الأمور الهمجية والشرسة، الجذابة والبشعة التي كانت تحيط بنا كان من الممكن العثور عليها في الحارة المجاورة وفي البيت المجاور. شرطة ومومسات، سكارى يضربون زوجاتهم، افواج من الفتيات يتدفقن من المصانع ليلاً، عجائز يعلقن التعويذة عليك لكي تمرض، لصوص يختبئون في الغابة، مشاغبون من محرقي البيوت تعتقلهم شرطة الأرياف، في كل مكان كان هذا العالم الثاني العنيف يبرز وتفوح رائحته، في كل مكان ما عدا في غرف والدينا وكان هذا حسناً وكان من المدهش ان السكينة والنظام والضمير الصالح المرتاح والتسامح والحب هي التي تسود في هذا العالم كما كان من المدهش ان البقية موجودة ايضاً، تفاقم الضجيج الفظ والنكد والعنف، الأمور التي يستطيع المرء ان يتجنبها، كلها، بقفزة الى حضن الأم.

غريب كم كان العالمان متجاورين ومتلاصقين! فمثلاً حين كانت لينا، خادمتنا، تجلس معنا على باب حجرة الجلوس عند صلوات المساء وتضيف صوتها الى الترنيمة، ويداها المغسولتان ملفوفتان في مئزرها المكوي، فإنها كانت تنتمي إلينا مع الأب والأم؛ إلى أولئك الذين يعيشون في النور والفضيلة. أما حين كانت، بعد ذلك، في المطبخ أو في سقيفة الحطب، تحكي لي حكاية «السنفور* الذي لا رأس له» أو حين كانت تتجادل مع نساء الجيران في دكان اللحام فقد كانت

---

* المقصود شخص ضعيف جداً جداً

شخصاً آخر تنتمي الى عالم آخر يغلفها بالغموض. وهكذا كان كل شيء وخاصة أنا كنت انتمي إلى عالم النور والفضيلة كنت ابن والديَّ. ولكن أنّي تحولت كنت أرى العالم الآخر، وكنت أعيش في هذا العالم الآخر أيضاً على الرغم من انني كنت غريباً فيه وكنت أعاني فيه من الرعب ومن عذاب الضمير. وفي بعض الأحيان كنت أفضل أن أعيش في العالم الممنوع، وكانت العودة بين حين وآخر الى عالم النور - لانه يمكن ان يكون ضرورياً وطيباً - أشبه بالعودة الى شيء أقل جمالاً، شيء رتيب ومضجر. كنت، أحياناً، أثق ثقة مطلقة ان قدري هو أن اصبح مثل أمي وابي، ذا رؤية واضحة ونقياً منتظماً ومتفوقاً مثلهما لكن هذا الهدف كان يبدو بعيداً جداً، وكان الوصول اليه يعني الدخول في مدارس لا نهاية لها والدراسة وتقديم الامتحانات والاختبارات والنجاح فيها وهذا الطريق لا بد له أن يمر عبر العالم الآخر المعتم. ولم يكن من المستحيل على المرء ان يبقى جزءاً منه وأن يغرق فيه كانت هناك قصص عن أولاد ضالين، وهي قصص كنت أقرأها بشغف. وكانت هذه القصص، دائماً، تصور العودة الى البيت نوعاً من الخلاص وأنه أمر استثنائي حتى اقتنعت بأن هذا وحده هو الأمر الصحيح والأفضل والمطلوب. ولكن الجزء من القصة الذي يتعلق بالتواجد وسط الشر والضياع كان أكثر جاذبية، وأحياناً - لو استطعت الاعتراف - لم أكن أريد للابن الضال أن يندم وأن يتم العثور عليه من جديد. لكن المرء لا يجرؤ على التفكير في أمر كهذا، ولا يجرؤ، أكثر من ذلك، على البوح به. كان حاضراً كهاجس، أو كاحتمال في أعماق الوعي وحين كنت أصور الشيطان لنفسي كنت أستطيع بسهولة ان اتخيله في الشارع تحتنا، مقنّعاً أو دون قناع، أو في معرض الريف أو في بار ولكنه لم يكن أبداً معنا في البيت.

أخواتي، أيضاً، كن ينتمين إلى عالم النور. وكثيراً ما كان يبدو لي أن لديهن انجذاباً طبيعياً أكبر نحو أبي وأمي كن أفضل مني، أفضل أخلاقاً ولديهن أخطاء أقل. كانت لهن أخطاؤهن بالطبع؛ ولديهن لحظات الطيش، لكنها لم تكن تبدو

لديهن عميقة كما هو الأمر بالنسبة لي أنا الذي صارت علاقته بالشر تزداد لتصبح ضاغطة ومؤلمة، والذي كان العالم المعتم يبدو اقرب إليه. الأخوات، مثل الوالدين، يجب أن تتوفر لهن الراحة والاحترام ـ واذا ما تشاجرت معهن فقد كنت ألوم نفسي دائماً فيما بعد، وأحس بأنني المتسبب وبالتالي الطرف الذي عليه أن يطلب السماح. فبإزعاج أخواتي كنت أزعج والديَّ وأزعج كل ما هو خيّر وسامٍ كانت هناك أسرار يمكن ان أبوح بها لأحط أنواع المجرمين ولا أبوح بها لأخواتي. وفي الأيام الجميلة، التي لم يكن فيها ضميري يزعجني، كان من الممتع حتى أن ألعب معهن وأن أكون طيباً ومهذباً مثلهن وأن أرى نفسي في النور الكريم. وهذا ما لا بد أن يعنيه كونك ملاكاً. إنها أسمى حالة يمكن أن تخطر للمرء. ولكن كم كانت هذه الأيام قليلة. فحتى في اللعب، في النشاط غير المؤذي، كنت أتحول الى شخص شديد الحماس والجموح بحيث أصبح مرهقاً لاخواتي. وكانت الشجارات والتعاسات التي تؤدي إليها هذه الحالة تدفعني إلى هياج أصبح معه مخيفاً أفعل وأقول أموراً شريرة تزيد في قسوة قلبي حتى وأنا أقولها. ثم تأتي ساعات قاسية من الندم الحزين والأسف، واللحظة المؤلمة التي أطلب فيها الصفح لتأتي بها أشعة النور، والسرور الهادىء الشكور المتكامل.

كنت في المدرسة اللاتينية. وكان ابن المحافظ وابن مدير الحراج في صفي. وكانا يأتيان أحياناً لزيارتي في بيتي، وعلى الرغم من أنهما كانا عنيدين جامحين إلا أنهما كانا من أعضاء العالم الخير والشرعي غير أن هذا لا يعني أنه لم تكن لي علاقات بأبناء الجيران الذين يذهبون إلى المدرسة الشعبية والذين كنا ننظر اليهم من علٍ وبواحد من هؤلاء يجب ان أبدأ قصتي.

في أحد أيام العطل ـ كنت أقترب من العاشرة من العمر ـ كنت أتجول مع ولدين من أبناء الجيران عندما انضم الينا ابن الخياط وهو ولد أكبر منا بكثير وقوي وفظ، كان والده يسكر ولعائلته كلها سمعة سيئة. كنت قد سمعت الكثير عن فرانز كرومر وكنت أخافه ولم أكن أحب أبداً أن ينضم إلينا. كانت طباعه طباع رجل.

وكان يقلد عمال المصنع في مشيتهم وحديثهم. وتحت قيادته نزلنا الى ضفة النهر قرب الجسر واختبأنا تحت القنطرة الأولى ولم يكن في الممر الضيق بين الجدار المعقود للجسر والنهر الجاري بتكاسل الا النفايات والحراشف وكبب شائكة من الأسلاك الصدئة والفضلات الأخرى. بين حين وآخر كان من الممكن التقاط شيء ما مفيد هناك. وأمرنا فرانز كرومر أن نمشط المنطقة ونجلب له ما نعثر عليه. وكان يضع ما نقدمه له في جيبه أو يلقي به الى النهر. طلب الينا ان نبحث عن اشياء مصنوعة من الرصاص أو النحاس أو التنك كان يتلقفها منا ـ وبينها مشط عتيق مصنوع من قرن. كنت احس بالضيق من وجوده، ليس فقط لانني كنت اعرف أن أبي لن يوافق على رؤيتي معه؛ بل، ببساطة، لأنني كنت خائفاً من فرانز نفسه وذلك على الرغم من أنني كنت مسروراً من قبوله لي ومعاملته لي كالآخرين. كان يعطي التعليمات ونحن نطيع ـ وبدا كما لو أن الأمر كان مألوفاً منذ زمن بعيد على الرغم من انها المرة الأولى التي أكون فيها معه.

بعد فترة من الزمن جلسنا وبصق فرانز في الماء، وكان يبدو مثل رجل. كان يبصق من خلال ثغرة بين أسنانه فيصيب اي شيء يسدد إليه. وبدأ الحديث وراح الأولاد يتباهون ويكومون المدائح لأنفسهم على كافة بطولات اولاد المدارس وحيلهم التي كانوا يقومون بها ظللت هادئاً وظللت خائفاً من أن ينتبهوا الي، ومن أن يثير صمتي غضب كرومر. كان صديقاي قد بدآ يتجنبانني في اللحظة التي انضم فيها الينا فرانز كرومر. كنت غريباً بينهم وكنت احس أن طباعي وملابسي تشكل تحدياً. فكتلميذ في المدرسة اللاتينية، كإبن مدلل لأب حسن الحال، سيكون من المستحيل على فرانز ان يحبني، وشعرت بدقة أن الاثنين الآخرين سرعان ما سيتخليان عني ويهجرانني.

وأخيراً، وانطلاقاً من العصبية وحدها، بدأت أحكي قصة مثلهم. اخترعت قصة طويلة عن سرقة قمت فيها بدور البطل. قلت لهم انني في حديقة قرب المطحنة، وبرفقة أحد الأصدقاء، قمت بسرقة ما ملأ حقيبة من التفاح ذات ليلة،

وأنه لم يكن تفاحاً عادياً بل من أحسن الأنواع. خوف اللحظة ذاتها هو الذي ألجأني الى هذه القصة ـ فاختراع القصص وسردها أمران يأتيانني بسهولة. ولكي لا أعود بشكل مفاجىء الى الصمت، وربما أغرق في ما هو أسوأ، قدمت عرضاً كاملاً لقدراتي السردية. وتابعت: إنه كان على واحد منا ان يقف للحراسة، بينما يتسلق الآخر الشجرة ويهزها لكي يسقط التفاح. وأكثر من ذلك صارت الحقيبة ثقيلة جداً مما اضطرنا لفتحها ثانية وترك نصف التفاح وراءنا. ولكن بعد نصف ساعة عدنا وأخذنا البقية.

وحين انتهيت رحت انتظر موافقة من أي نوع كان. لقد تحمست للموضوع حتى نهايته ونقلتني فصاحتي بعيداً ظل الصغيران صامتين ولكن فرانز كرومر تطلع اليّ بحدة بعينيه الضيقتين وسألني مهدداً:

ـ هل هي صحيحة؟

ـ نعم ـ أجبته.

ـ صحيحة وحقيقية؟

ـ نعم. صحيحة وحقيقية. قلت مصراً بعناد بينما كنت اغص بالخوف في أعماقي.

ـ هل تقسم على ذلك؟

ازداد خوفي فقلت: نعم.

ـ قل إذن: وحق الله وبركة روحي.

ـ وحق الله وبركة روحي. قلت.

قال طيب، والتفت عني.

ظننت ان المسألة قد سُويت وسررت حين نهض والتفت ينوي الذهاب الى بيته، وبعد أن تسلقنا الجسر عائدين قلت، متردداً، انني أود التوجه الى بيتي وحيداً.

ضحك فرانز وقال: «لا يمكن أن تكون مستعجلاً بهذا المقدار. نحن ذاهبون في الاتجاه ذاته ألبس كذلك؟»

راح يمشي متمهلاً ولم أجرؤ على الإسراع. وكان، في الحقيقة، يتوجه نحو بيتي وحين وقفنا أمامه ورأيت المدخل والمطرقة النحاسية الكبيرة، والشمس في النوافذ والستارة في غرفة أمي تنفست الصعداء.

وحين فتحت الباب بسرعة وانسللت منه وأغلقته خلفي تسلل فرانز كرومر ورائي وفي الممر القرميدي البارد المواجه للباحة وقف الى جانبي وأمسك بي قائلاً: لا تكن متعجلاً هكذا

تطلعت اليه مذعوراً. كانت قبضته على ذراعي مثل الملزمة. استغربت ما الذي يمكن أن يكون قد دار في ذهنه وما اذا كان يمكن أن يؤذيني. وحاولت أن اتخذ قراري عما اذا كنت سأصرخ الآن؛ لو صرخت بحدة وبصوت عال فقد يأتي احدهم من الأعلى وبسرعة تكفي لانقاذي.

وسألته: ما الأمر؟ ماذا تريد؟

- لا شيء هام. أردت فقط أن أسألك عن شيء. يجب ان لا يسمعه الآخرون.

- صحيح ؟ لا اظن ان لدي شيئاً أقوله لك. أنت تعرف. عليّ أن أصعد.

وبنعومة سألني فرانز كرومر: انت تعرف من يملك البستان المجاور للمطحنة، ألا تعرف؟

- لست متأكداً. الطحان على ما اظن.

كان فرانز قد أحاطني بذراعه وشدني اليه بحيث اضطررت ان احدق الى وجهه على بعد إنشات. كانت عيناه تنضحان بالشر، وابتسم ابتسامة حاقدة. وامتلأ وجْهه بالقسوة وباحساس بالقوة قال: أستطيع أن أخبرك من هو صاحب البستان. كنت أعرف منذ فترة ان هناك من سرق التفاح من هناك وقد قال الرجل الذي يملك

البستان أنه سيعطي ماركين لأي شخص يخبره عمن سرقه.

وهتفت: يا إلهي لن تفعل ذلك. هل ستخبره؟

شعـرت أنه ليس مجدياً الاعتماد على شرفه. لقد جاء من العالم الآخر. والوشاية ليست جريمة بالنسبة له أحسست بذلك بدقة. فالناس في العالم الآخر ليسوا مثلنا في هذه الأمور.

ضحك كرومر: لا أقول شيئاً؟ يا ولد. ماذا تظنني؟ هل تظن أن لدي معمل نقود؟ أنا فقير. وليس لدي أب غني مثل أبيك واذا كنت أستطيع أن أكسب ماركين فانني سأكسبهما بأية طريقة أستطيع، بل ربما كان سيعطيني أكثر.

وتركني بغتة ولم يعد الممر يوحي بالأمان والطمأنينة بدأ العالم المحيط بي يتقوض سيسلمني للشرطة! أنا مجرم وسيتم ابلاغ والدي ـ بل ربما جاءت الشرطة نفسها ان رهبة التشوش تتهددني كل ما هو بشع وخطر يتوحد ضدي لم يعد يعني شيئاً كوني لم أسرق شيئاً لقد أقسمت أنني فعلت.

وتـدفقت الدموع من عيني وأحسست أن علي أن اعقد صفقة ورحت أفتش جيوبي متلهفاً لم تكن معي أية تفاحة أو سكين جيب. ليس معي أي شي على الإطلاق. وفكرت بساعتي، ساعة فضية قديمة لم تكن تعمل وكنت ألبسها لمجرد اللهو. كانت ساعة جدتي وخلعتها بسرعة.

قلت كرومر. اسمع لا تش بي لن يكون لطيفاً منك أن تفعل ذلك. سأعطيك ساعتي كهدية. ها هي انظر اليها ليس لدي اي شيء غيرها. تستطيع ان تأخذها إنها من الفضة. أما عن دورانها فهناك عطل صغير فيها. سيكون عليك ان تثبتها

ابتسم وهو يزن الساعة في كفه تطلعت الى يده وشعرت كم هي وحشية وعدائية تجاهي، وكيف انها تستطيع ان تنال من حياتي وطمأنينتي

قلت متردداً: إنها من الفضة.

قال باحتقار: لست مهتماً بساعتك القديمة والفضية. خذها وثبتها لنفسك.

وهتفت وأنـا ارتعـد خوفاً من ان يهرب: ولكن يا فرانز انتظر. انتظر لحظة. لم لا تأخذها؟ إنها فعلاً من الفضة. بشرفي. وليس لدي اي شيء غيرها.

ألقى علي بنظرة احتقار باردة:

أنت تعرف إلى أين أستطيع أن أذهب. أو ربما ذهبت الى الشرطة ان علاقتي جيدة بالرقيب.

والتفت كأنه ينوي الذهاب. فتمسكت بكمه. لم يكن في وسعي ان اسمح له بالذهاب أُفضل أن أموت على أن أواجه ما قد يحدث لو انه ذهب الآن.

وتوسلت اليه بصوت جعله التوتر أجش: فرانز! لا تقم بأي عمل طائش. انك تمزح فقط. أليس كذلك؟

ـ نعم. أنا أمزح لكنها قد تصبح مزحة باهظة الثمن.

ـ قل فقط ما المفروض ان افعله يا فرانز. سأفعل أي شيء تطلبه

تمـلاني صعـوداً ونزولاً بعينيه الضيقيتين ثم ضحك مرة أخرى وقال بمرح زائف: لا تكن غبياً أنت تعرف، كما أعرف، أنني في وضع يمكنني من كسب ماركين. وأنا لست الغني الذي يستطيع ان يتخلى عنهما، ولكن انت غني ـ حتى ان لديك ساعة. كل ما عليك ان تفعله هو أن تعطيني ماركين. وعندها ينتهي الأمر.

فهمت حجته ولكن ماركان! هذا مبلغ كبير وصعب الحصول عليه مثل العشرة والمئة والالف. ليس معي بفنغ* واحد. وكانت لدي حصالة تحتفظ امي بها لي وحين كان الاقرباء يأتون لزيارتنا يلقون فيها بقطع من ذات الخمسة او العشرة بفنغات. هذا كل ما لدي ولم يكن لي مصروف مخصص في ذلك الحين.

قلت بحزن: ولكن ليس معي شيء. ليس معي مال أبداً. سأعطيك كل

جزء المئة من المارك

شيء لدي. لدي قصص كاوبوي، وجنود من المعدن وبوصلة. انتظر. سأجلبها لك.

ولم يفعل كرومر شيئاً سوى أن برم فمه بنخرة قصيرة. ثم بصق على الأرض.

وبفظاظة قال: أبقِ تفاهاتك معك. بوصلة! لا تجنني. هل تسمع؟ انا اسعى الى المال.

- ولكن ليس معي، ولم يسبق ان كان معي لا يد لي في الأمر.

- طيب. ستجلب الماركين غداً إذن. سأنتظرك بعد المدرسة قرب السوق. انتهى الموضوع. وسترى ما سيحدث ان لم تجلبهما.

- ولكن من اين سأحصل عليهما ان لم يكن معي؟

- يوجد الكثير من المال في منزلكم. وهذه مشكلتك. غداً، وبعد المدرسة. وأقول لك: ان لم تجلبهما معك. » وألقى عليّ نظرة ناعسة ثم بصق مرة أخرى واختفى كأنه خيال.

لم استطع حتى الصعود على الدرج. لقد تحطمت حياتي. فكرت في الهرب وعدم الرجوع أو اغراق نفسي الا انني لم استطع ان اتمثل أياً منهما بوضوح. وفي الظلام جلست في اسفل السلم، أقلب الأمر وقد أسلمت نفسي للبؤس. وهناك عثرت عليّ لينا وأنا أبكي فيما كانت نازلة ومعها سلة لجلب الحطب.

توسلت إليها أن لا تشي بي ثم صعدت السلم. الى يمين الباب الزجاجي عُلِّقت قبعة والدي ومظلة والدتي الشمسية. كانتا تمنحانني إحساساً بالبيت والراحة فيخفق لهما قلبي شاكراً مثلما يمكن للابن الضال ان يحيّي منظر الغرف القديمة الأليفة ورائحتها. ولكن هذا كله ضاع مني الآن. كله ينتمي الى عالم أبي وأمي الواضح الوضاء؛ وأنا، المدان الغارق في اعماق العالم الغريب الآخر، والواقع في شرك المغامرات والخطيئة يطاردني عدو - اخطار ومخاوف وخزي. القبعة والمظلة

والباب ذو الحجر الرملي الذي كنت مغرماً به، والصورة الكبيرة المعلقة فوق خزانة الصالون، وصوت اختي الكبرى الذي يأتيني من غرفة الجلوس هذا كله صار أكبر تأثيراً ولذة مما سبق ان كان عليه لكن هذا كله لم يعدملجأ أو مستنداً يُعتمد عليه صار هذا كله تأنيباً واضحاً، لم يعد في هذا كله شيء يخصني ولم اعد قادراً على المشاركة في البهجة المريحة التي يشيعها. وكانت قدماي موحلتين فلم استطع حتى مسحهما بالممسحة. وحيثما اذهب تتبعني عتمة لم يكن هذا العالم البيتي يعرف عنها شيئاً، كم من الأسرار صار لدي؛ وكم تعرضت للخوف ـ ولكن ذلك كله كان لعب اولاد بالمقارنة مع ما جاء معي، اليوم، إلى البيت. كانت التعاسة تتملكني وتطاردني؛ وحتى أمي لم تكن قادرة على حمايتي خاصة وأنها لم تكن قادرة على ان تعرف شيئاً عن الموضوع. وسواء كانت جريمتي هي السرقة أم الكذب (ألم أحلف بالله وبكل ما هو مقدس يميناً كاذبة؟) فهي جريمة روحية. لم تكن جريمتي شيئاً محدداً في هذا الأمر أم ذاك بل في انني صافحت الشيطان. لم ذهبت؟ لم أطعت كرومر ـ أكثر مما اطعت حتى أبي؟ لم اخترعت القصة فألصقت بنفسي جريمة وكأنني أدعي بطولة؟ لقد أمسك الشيطان بي بين براثنه، والعدو يطاردني الآن.

حتى الآن لم أكن خائفاً مما قد يحدث غداً مثلما كنت خائفاً من اليقين المرعب من أن طريقي، من الآن فصاعداً، سيقودني أعمق فأعمق في عالم الظلمة. وشعرت بأن ذنوباً جديدة لابد لها أن تنبع من هذا الذنب، وأن وجودي بين اخواتي، وتحيتي لوالديَّ، وقبلاتي لهما مجرد كذبة، وبأنني أعيش كذبة مخبأة في أعماقي.

لفترة قصيرة تصاعد الأمل والثقة في نفسي وأنا أنظر الى قبعة والدي. سأقول له كل شيء وسأتقبل حكمه وعقوبته وسأجعله مخلصي ومتلقي اعترافاتي. لن يكون الأمر إلا كفارة من النوع الذي طالما اضطررت اليه؛ الساعة المرهقة والطلب الصعب المؤسف للصفح.

كم كان هذا يبدو سهلاً ومغرياً، ولكنه غير مجدٍ. كنت أعرف انني لن أقوم بذلك. وكنت أعرف ان لدي الآن سراً، خطيئة سيكون عليّ التكفير عنها بنفسي. ربما كنت أقف على مفترق طرق، وربما كنت قد انتميت، كلياً وإلى الأبد، للأشرار، اشاركهم اسرارهم واتكل عليهم وأطيعهم وصار لزاماً عليّ ان أصبح واحداً منهم. لقد مثلت دور الرجل والبطل وعليّ الآن ان اتحمل النتائج

سررت حين وبخني والدي بسبب حذائي الموحل. لقد حول هذا الأمر انتباهه، بتجنب المشكلة الحقيقية ووضعي في حالة تلقي التأنيب الذي كنت أحوله سراً الى الذنب الآخر الأكثر خطورة وجدية. ومن هذه الزاوية سيطر عليّ احساس جديد وغريب كان يخزني بشكل ممتع وهو انني متفوق على والدي! وللحظة أحسست بشيء من القرف من جهله. فتوبيخه لي على حذائي الموحل كان أمراً يدعو الى الرثاء. «آه لو كنت تعرف» عبرت الفكرة في ذهني مثل مجرم يُستجوب من أجل رغيف مسروق بينما هو قد ارتكب جريمة قتل. كان شعوراً عدائياً كريهاً، لكنه شعور قوي وجذاب يشدني نحو سري وذنبي وخطر لي ان كرومر ربما قد ذهب الى الشرطة الآن وأبلغ عني، وان زوابع تتجمع الآن فوق رأسي بينما هم يعاملونني الآن وكأنني طفل.

كانت هذه اللحظة أهم وأشد رسوخاً من كل ما في التجربة. انها أول صدع في صورة أبي الشاملة، وأول تشقق في الأعمدة التي تقوم عليها طفولتي؛ الأعمدة التي يجب على كل إنسان أن يهدمها قبل أن يصير نفسه ان الخط الداخلي الأساسي لمصيرنا يشتمل على تجارب شبيهة غير مرئية. وهذه التصدعات والشقوق تتجمع وتشفى ثم تنسى، ولكن في الأعماق الخفية تظل حية وتظل تنزف.

وسرعان ما خفت من هذا الشعور حتى أوشكت على الوقوع امام والدي لتقبيل قدميه طالباً السماح لكن الانسان لا يستطيع أن يعتذر عن أمر جوهري. والطفل يشعر بذلك ويعرفه مثله مثل اي شيخ حكيم.

شعرت بالحاجة للتفكير في وضعي الجديد، ودراسة ما سأفعله غداً لكنني لم أجد الوقت. طوال المساء كنت منشغلاً في التعود على الجو المتغير في غرفة الجلوس. ساعة الجدار والطاولة والانجيل والمرآة وخزانة الكتب والصور على الجدار، كلها كانت تخلفني وراءها كنت مجبراً على ان أرقب، برعشة في قلبي، كيف ان عالمي وحياتي الطيبة السعيدة الخالية من الهموم قد صارت جزءاً من الماضي، وقد أخذت تتحطم لتنفصل عني وكنت مضطراً لتحسس الكيفية التي كنت أُقَيَّدُ بها وأنشدّ بجذور جديدة نحو الخارج، نحو العالم المعتم الغريب. وللمرة الأولى في حياتي عرفت طعم الموت وكان له طعم مر، فالموت ولادة وخوف، ورهبة من التجدد المخيف.

أحسست بالسعادة لتمددي، أخيراً، في فراشي قبل ذلك مباشرة، وكآخر تعذيب لي، كان عليّ أن اتحمل صلاة المساء أنشدنا ترنيمة كانت مفضلة لدي ولكنني شعرت بالعجز عن المشاركة وصارت كل نغمة فيها تستفزني وعندما ترنم والدي بالمباركة ـ عندما انتهى بـ«وليكن الله معنا» ـ تكسر شيء في أعماقي وانتبذت الى الأبد من هذه الدائرة الأليفة كانت رحمة الله معهم جميعاً لكنها لم تعد معي تركتهم وأنا أحس بالبرودة والانهاك.

عندما استلقيت في فراشي ولفني الدفء والأمان فيه عاد قلبي الخائف مرة أخرى الى تشوشه وراح يهوّم بقلق فوق ما صار الآن ماضياً ودعتني أمي وداعها المسائي المألوف وكنت ما أزال أسمع خطواتها في الغرفة الأخرى وكان ضوء المصباح ما يزال يتسرب من شقوق الباب وقلت لنفسي، الآن ستعود مرة أخرى، لقد أحست بشيء ما ستقبّلني وتسألني تسألني بلطف وبوعد في صوتها وعندها سوف ابكي فتذهب الغصة من حلقي والقي بذراعيَّ حولها وتصبح الأمور على خير ما يرام أكون قد نجوت. وحتى بعد ان اظلمت شقوق الباب ظللت أصغي وأنا واثق من ان ذلك لا بد ان يحدث ببساطة

ثم عدت الى متاعبي وتطلعت الى عدوي في عينيه. كنت استطيع رؤيته

بوضوح. احدى عينيه تدور وفمه ملوي بابتسامة وحشية. ولكنني وأنا أنظر اليه، وأزداد اقتناعاً بالمحتوم، كان يكبر ويزداد بشاعة وعينه الشريرة تلتمع بوميض شيطاني. وظل الى جانبي حتى نمت. إلا انني لم احلم به ولا بما حدث ذلك اليوم. بدلاً من ذلك حلمت ان والدي واخواتي وأنا نبحر في قارب ويحيط بنا هدوء شامل مع راحة العطلة. وفي منتصف الليل استيقظت وطعم تلك السعادة ما يزال عالقاً بي. كنت ما أزال قادراً على رؤية ثياب أخواتي الصيفية البيضاء وهي تتلامع تحت الشمس عندما سقطت من ذلك الفردوس عائداً الى الواقع، ومن جديد، وجهاً لوجه مع العدو بعينه الشريرة.

في صباح اليوم التالي، حين اندفعت أمي صارخة انني تأخرت ومتسائلة عما يبقيني في فراشي بدوت كالمريض. وحين سألتني عما ألم بي تقيأت.

بدا لي هذا مكسباً، كنت أحب أن أمرض مرضاً خفيفاً وأن يُسمح لي بالتمدد في الفراش طوال الصباح وأنا أشرب البابونج وأتطلع الى أمي وهي ترتب الغرف الأخرى أو الى لينا وهي تجادل اللحّام في الرواق. كانت الصباحات التي لا تقضى في المدرسة ساحرة كحكايات الجان؛ الشمس التي تلعب في الغرفة ليست هي ذاتها الشمس المبعدة خارج المدرسة حين تنخفض الظلال الخضراء الا انه حتى ذلك لم يمنحني الغبطة في ذلك اليوم فهناك شيء مزيف في الأمر.

آه لو انني استطيع ان اموت! ولكن، وكما كان يحدث غالباً، لم أكن إلا متوعكاً قليلاً. ولم يكن الأمر مجدياً فمرضي قد حماني من المدرسة ولكن ليس من فرانز كرومر الذي سيكون بانتظاري في الحادية عشرة في السوق. وتودد أمي، بدل أن يريحني، كان مصدر ازعاج مرهق. تظاهرت بالنوم مجدداً لكي أُترك وحدي وأفكر. ولكنني لم أستطع أن أجد مخرجاً في الحادية عشرة يجب أن أكون في السوق. ارتديت ملابسي في العاشرة وقلت إنني أشعر بتحسن. وكان الجواب، كما هي العادة في مثل تلك الظروف، هو انه عليّ أن أعود إلى السرير أو أذهب بعد الظهر الى المدرسة. فقلت إنني سأذهب الى المدرسة بسرور. وكنت قد

توصلت الى خطة.

لم يكن في مقـدوري مواجهة كرومر وأنا مفلس. كان عليّ أن أصل الى حصالتي وكنت أعرف انها لا تحتوي على ما يكفي لكن فيها شيئاً ما على الأقل. وقد خمنت ان شيئاً ما أفضل من لا شيء وان كرومر يمكن تهدئته.

بجواربي تسللت الى غرفة أمي وأخذت الحصالة من درجها. لكن هذا لم يكن مربكاً نصف الارباك الذي وقع لي يوم أمس مع كرومر. كان قلبي يخفق بعنف وبشدة وأحسست انني أوشك على الاختناق، ولم يهدأ حين اكتشفت، وأنا تحت السلم، ان الحصالة مقفلة. كان من السهل خلعها؛ فالأمر لا يتطلب الا تمزيق القشرة التنكية الرقيقة لكن تحطيمها مؤذ ـ الآن فقط كنت اقترف السرقة. قبل ذلك كنت اختلس قطعاً من السكر أو بعض الفاكهة؛ أما هذه فسرقة أكثر جدية على الرغم من انني كنت أسرق نقودي. وأدركت انني صرت على بعد خطوة واحدة من كرومر وعالمه؛ وكيف ان كل ما يتعلق بي كان ينحدر تدريجياً إلى الأسفل. أخذني العنـاد: فليأخذ الشيطان ما تبقى. لم يعد هناك مجال للتراجع الآن. أحصيت النقود بعصبية. حين كانت في الحصالة كانت توحي أنها أكثر مما هي عليه، لكن ما صار في يدي كان قليلاً بشكل مؤلم. خمسة وستون بفنغاً. خبأت العلبة في الأرض وأطبقت كفي على النقـود. وحين خرجت من البـوابة كنت أشعر شعوراً مختلفاً عن أي شعور سابق. خيل اليّ أن هناك من يناديني من فوق السلم لكنني ابتعدت مسرعاً.

كان ما يزال هنـاك وقت طويل. وفي طريق متعـرج تسللت عبـر الحارات الصغيرة في المدينة المتغيرة، تحت سماء غائمة لم أر مثلها من قبل، فيما البيوت والناس يتطلعون إليّ متشككين. ثم خطر لي أن أحد زملائي في المدرسة قد عثر في سوق الماشية ذات يومٍ على طالير* كنت مستعداً للركوع بسرور والصلاة لله

* قطعة نقدية ألمانية فضية قديمة.

لكي يحقق معجزة ويجعلني أعثر على شيء مشابه لكنني كنت قد فقدت الحق في الصلاة. وفي كل الأحوال سيتطلب إصلاح العلبة معجزة أخرى.

رآني فرانـز كرومـر من بعـد. الا انـه اقتـرب مني دون تعجل وبدا وكأنه يتجاهلني وحين اقترب أشار إليّ بتسلط أن أتبعه. ودون أن يلتفت وراءه مرة واحدة نزل بهدوء الى (ستروغاس) ثم عبر جسراً صغيراً للمشاة حتى توقف أمام بناء جديد في ظاهر المدينة لم يكن حولنا عمال. وكانت الجدران عارية. كما أن الأبواب والنوافذ كانت غير مدهونة تطلع كرومر حوله ثم مشى عبر المدخل الى المنزل وأنا أتبعه توقف وراء احد الجدران وأشار لي وهو يمد يده.

سألني ببرود: هل جلبت؟

سحبت قبضتي المنغلقة من جيبي وأفرغت النقود في راحته الممدودة. عدَّها قبل أن يسقط آخر بفنك في يده.

ـ خمس وستون بفنغاً. قال وهو يتطلع إليّ.

ـ نعـم. قلت متوتراً هذا كل ما لدي. أعرف انه ليس كافياً لكن هذا كل ما لدي.

قال مؤنباً بشيء من اللطف: كنت أظن أنك أشطر من ذلك. حين تكون بين أناس شرفاء عليك ان تتصرف التصرف الصحيح. أنا لا أريد أن آخذ منك شيئاً ما لم يكن هو المبلغ المطلوب. أنت تعرف ذلك. خذ فلوسك. ها هي. الشخص الآخر ـ وأنت تعرف من هو ـ لن يحاول تخفيض المبلغ. انه يدفع زيادة».

ـ ولكن ببساطة ليس عندي أي بفنغ آخر. هذا كل ما لدي في حصالتي.

ـ هذا شأنك. أنا لا أريد ان أزعجك. انك مدين لي بمارك وخمس وثلاثين بفنغاً. متى سأحصل عليها؟

ـ ستحصل عليها بالتأكيد يا كرومر. المسألة هي انني لا اعرف الآن متى سيكون ذلك. ربما حصلت على المزيد غداً أو بعد غد. أنت تفهمني. أليس

كذلك؟ إنني لا استطيع ان أنبس بكلمة عن الموضوع مع والدي

هذا لا يعنيني أنا لا اريد إيذاءك انني أستطيع الحصول على نقودي قبل الغداء كما تعرف لو اردت وأنت تعرف أنني فقير. إنك ترتدي ملابس غالية الثمن وتتغذى بطعام أفضل من طعامي ولكنني لن أقول شيئاً أستطيع الانتظار قليلاً بعد غد سأصفر لك أنت تعرف صفرتي أليس كذلك؟

وأسمعني إياها وكنت قد سمعتها من قبل.

ـ نعم. أعرفها

وتركني وكأنه لم يسبق له ان رآني من قبل كان ما جرى بيننا صفقة من نوع ما ولا شيء أكثر.

أعتقد أن صفرة كرومر ستخيفني حتى لو سمعتها الآن بشكل مفاجىء. منذ ذلك الحين صار علي أن أسمعها تتردد أكثر من مرة. وقد بدا لي أنني أسمعها دائماً لم يكن هناك مكان واحد، أو لعبة واحدة. أو أي نشاط أقوم به أو فكرة تخطر لي إلا وصفير كرومر يخترقه، أو يخترقها، ذلك الصفير الذي جعلني عبداً له؛ والذي صار قدري ـ وكثيراً ما كنت أدخل إلى حديقتنا التي كنت مغرماً بها في تلك الأيام الخريفية اللطيفة، ورغبة مبهمة تحثني على أن ألعب الألعاب الطفولية التي كنت أقوم بها في تلك السنوات؛ ولنقل إنني كنت ألعب لعبة اصغر مني لكنها لعبة من لا يزال طيباً وحراً، بريئاً وآمناً. ولكن حتى في وسط هذا الملاذ ـ وبشكل متوقع لكنه مفاجىء في كل مرة بشكل مرعب ـ ينطلق صفير كرومر ليقوض اللعبة ويسحق أوهامي. ويكون عليّ، عندها، أن أغادر الحديقة لكي أتبع معذبي إلى أماكن قبيحة وشريرة حيث يكون عليّ أن أقدم له كشفاً بوضعي المالي البائس ثم أسمح بالضغط عليّ لكي أدفع. لقد استمر الأمر كله عدة أسابيع على ما أظن، لكن ذلك كان يعادل بالنسبة لي سنوات، أو دهراً. ونادراً ما كنت أحصل على أية نقود، خمسة بفنغات أو عشرة، أسرقها عن طاولة المطبخ حيث تكون لينا قد تركت سلة التسوق. وكان كرومر يوبخني في كل مرة ويزداد احتقاراً لي؛ فأنا أغشه وأخدعه

وأحرمه مما كان حقاً له، إنني أسرقه وأجعله بائساً! لم أكن في حياتي محبطاً كما كنت في تلك الفترة ولم اشعر ابداً بمثل هذا اليأس وهذا الاسترقاق.

ملأت الحصالة بنقود مزيفة (من نقود اللعب) واعدتها الى درج والدتي. لم يسأل أحد عنها. ولكن احتمال ان يسألوا لم يبرح ذهني. وما كان يخيفني اكثر من صفير كرومر الوحشي هو أن تأتي إليّ أمي ـ أليست قادمة لتسألني عن الحصالة؟

ولأنني قد التقيت بمعذبي عدة مرات وأنا خاوي الوفاض بدأ يبتكر أساليب جديدة لتعذيبي واستغلالي. كان عليّ أن أشتغل عنه. فهو يؤدي عدة مهام لوالده. وصار علي أن أقوم بها أنا، أو انه كان يطلب مني القيام بعمل صعب كأن أحجل عشر دقائق على ساق واحدة أو أعلق ورقة على معطف شخص عابر. وفي ليال عديدة كنت أؤدي هذه الأعمال المعذبة حتى اغرق في عرق الكابوس.

ولفترة مرضت مرضاً فعلياً. كنت أتقيأ كثيراً وتصيبني الرعشة لكن في الليل ترتفع حرارتي وأتعرق. وأحست أمي أن هناك أمراً غير طبيعي فصارت تراعيني كثيراً. لكن هذا زاد في تعذيبي إذ لم أكن قادراً على مقابلة هذه المراعاة بإفشاء سري لها.

وذات ليلة، بعد ان أويت الى فراشي، جلبت لي قطعة شوكولا، وذكرني هذا بأعوامي السابقة، عندما كنت أتلقى مكافآت كهذه قبل النوم اذا كان سلوكي لطيفاً. وها هي الآن تقف أمامي وتعطيني قطعة الشوكولا كان المنظر مؤلماً فلم أستطع أن أفعل شيئاً أكثر من أن أهز رأسي. سألتني عما حدث لي وهي تربت على شعري. ولم استطع أن أجيبها إلا بقولي: «لا لا لا أريد شيئاً». وضعت قطعة الشوكولا على الطاولة المجاورة للسرير وغادرت الغرفة. وفي صباح اليوم التالي حين ارادت ان تسألني عن تصرفي في الليلة السابقة تظاهرت انني نسيت الحادث كلياً. وذات مرة جلبت لي الطبيب ففحصني ووصف لي حماماً بارداً في الصباح.

كانت حالتي في ذلك الحين نوعاً من الجنون. فوسط الهدوء المنظم لبيتنا

كنت اعيش خجلاً ومعذباً مثل شبح لم أكن أمارس أي دور في حياة الآخرين. ونادراً ما كنت أنسى نفسي ولو لساعة بين حين وآخر. ومع والدي، الذي كان يثور كثيراً ويسألني عما يجري، كنت بارداً تماماً

٢ ـ قابيـــل

جاءني الخلاص من مصدر غير متوقع على الاطلاق، وهو، أيضاً، ما أدخل عنصراً جديداً في حياتي ما زال يؤثر فيّ حتى الآن.

دخل مدرستنا ولد جديد كان ابن ارملة ثرية جاءت تعيش في بلدتنا وكان يلف على كمه عصابة حداد. وبما أنه أكبر مني بعدة سنوات فقد وضع في صف أعلى لكنني لم أستطع تجنب مراقبته ومتابعته. وكذلك كان الجميع. كان هذا التلميذ المتميز يبدو أكبر من مظهره. والحقيقة انه لم يكن يوحي لأحد بأنه ولد. فعلى العكس منا جميعاً كان يبدو غريباً وناضجاً مثل رجل أو ربما مثل جنتلمان. لم يكن محباً للاختلاط ولم يكن يشاركنا ألعابنا وخاصة ألعابنا الفظة وصوته القوي الواثق، وحده، مع المعلمين جعله يكسب إعجاب التلاميذ. وكان اسمه ماكس دميان.

ذات يوم ـ وكما يحدث بين حين وآخر ـ أضيف إلى قاعتنا الواسعة صف آخر لسبب ما وكان هذا صف دميان. وكنا، نحن الأصغر، نأخذ درساً من الكتاب المقدس. وكان على الصف الآخر، الأعلى، ان يكتب مقالة وفيما كانت قصة قابيل وهابيل تلقى على مسامعنا، كنت أتطلع نحو دميان الذي كان لوجهه بالنسبة لي سحر خاص. ورحت اراقب ذلك الوجه الذكي المضيء والمليء بالتصميم

على شكل غير مألوف وهو مكب باستغراب على عمله. لم يكن يبدو عليه، أبداً، انه تلميذ يكتب وظيفة، بل كان أشبه بعالم يتقصى مشكلة تعنيه. ولم أستطع الجزم بأنه قد ترك عندي انطباعاً ودوداً؛ بل على العكس من ذلك كان في نفسي شيء ما ضده، فقد كان يبدو متفوقاً جداً ومنعزلاً جداً، وفي سلوكه ثقة مغيظة، كما كانت عيناه تعطيانه تعبير البالغين ـ الذي لا يحبه الأطفال ـ بمسحة من الحزن مشوبة بالسخرية. لكنني لم أستطع منع نفسي من النظر اليه، دون اعتبار لكوني أحبه أو أمقته. ولكن إن صدف وحول عينيه باتجاهي فقد كنت أهرب بنظري خائفاً. وحين استعيد ذلك في هذه الأيام، وأستعيد كيف كان يبدو كتلميذ في ذلك الحين، لا أستطيع أن أقول إلا انه كان مختلفاً عن الآخرين في كل شيء، لقد كان منسجماً تماماً مع نفسه، وله شخصيته الخاصة به والتي كانت تجعله مرموقاً على الرغم من انه كان يبذل جهده لكي لا يكون محط الأنظار، كان له سلوك الأمير وطباعه؛ الأمير المتخفي بين أولاد المزرعة وهو يبذل جهداً كبيراً لكي يبدو واحداً منهم.

كان يسير خلفي في طريق العودة الى البيت من المدرسة، وبعد ان انفصل الآخرون عني وصل اليّ وقال: مرحباً. حتى طريقته في التحية، وعلى الرغم من انه كان يحاول تقليد اسلوب التلاميذ، كانت متميزة في نضجها وأدبها.

سألني: هل نمشي معاً؟ فشعرت بشيء من الزهو وهززت رأسي موافقاً. ثم أخبرته أين أعيش.

ـ هـا هناك؟ قال وابتسم. ثم أضاف: أعرف البيت، هناك شيء غريب فوق المدخل. لقد أثار اهتمامي فوراً.

لم أعرف مسبقاً ما كان يقصده واستغربت ان يعرف بيتنا أكثر مما أعرفه. الحجر الموجود وسط القنطرة، فوق الباب، كان عليه نوع من شعار النبّالة لكنه مطموس بفعل الزمن وقد غطي بالدهان أكثر من مرة. وعلى قدر ما أعرف لا علاقة لهذا الشعار بنا أو بعائلتنا.

قلت بخجل لا أعرف عنه شيئاً. انه طائر أو شيء من هذا القبيل. ولا بد انه قديم جداً. في مرحلة من المراحل كان المنزل جزءاً من الدير.

هز رأسه: ممكن. تطلع اليه بتمعن. أشياء كهذه يمكن ان تكون هامة. أظن أنه باشق.

تابعنا سيرنا شعرت انني خجل. وبغتة ضحك دميان وكأن شيئاً مضحكاً خطر له. وصاح: صحيح حين كنا في الصف سوية' قصة قابيل الذي له علامة على جبهته هل أحببتها؟

لا لم تعجبني، كان من النادر بالنسبة لي أن أحب أي شيء مما علينا أن نتعلمه. لكنني لم أجرؤ على الاعتراف بالأمر؛ فقد شعرت أن شخصاً كبيراً يكلمني قلت إنني لم أهتم كثيراً بالقصة.

وضربني دميان ضربة خفيفة على ظهري: «لست مضطراً للتمثيل أمامي. ولكن في الحقيقة ان القصة مثيرة أكثر من أية قصة أخرى يعلموننا إياها في المدرسة. استاذكم لم يستطرد فيها. لم يذكر إلا الأشياء العادية عن الله والخطيئة وما شابه ذلك. لكنني أعتقد ـ» وقاطع نفسه ليسألني باسماً: «هل يثيرك اي شيء في هذا؟» ثم تابع: «أظن ان الانسان يستطيع ان يعطي لهذه القصة عن قابيل تفسيراً مختلفاً. معظم الأشياء التي نتعلمها صحيحة وحقيقية. أنا واثق من ذلك. لكن الانسان يستطيع ان ينظر اليها من زاوية مختلفة تماماً عن الزاوية التي ينظر منها معلمونا ـ وفي معظم الحالات يصبح لها معنى أفضل. فمثلاً ليس من الممكن ان يقتنع الانسان بقصة هابيل هذه والعلامة التي على جبهته وبالطريقة التي شرحت لنا بها ألا توافق؟ من الممكن تماماً لشخص ما ان يقتل اخاه بحجر ثم ان يتألم ويندم. أما أن يكافأ على جبنه بوسام خاص، بعلامة تحميه بينما يحل الخوف من الله في قلوب الآخرين؛ فهذا هراء. أليس كذلك؟

ـ طبعاً، قلت باهتمام وقد بدأت الفكرة تستهويني ولكن أية طريقة اخرى

هناك لتفسير القصة؟

وضربني ضربة خفيفة على كتفي.

الأمر بسيط جداً العنصر الأول في القصة، بدايتها الفعلية، هو العلامة. يوجد شخص على جبينه شيء ما يخيف الآخرين. لم يكونوا يجرؤون على مد أيديهم عليه، كان يؤثر عليهم، هو وأولاده. نستطيع أن نخمن ـ لا بل نستطيع ان نكون واثقين ـ انها لم تكن علامة على الجبين مثل ختم البريد ـ ليست الحياة ابداً بهذا الوضوح وهذه المباشرة. بل انه من المحتمل ان الآخرين كانوا يرونه شريراً، وربما أكثر ذكاء بقليل وأكثر جرأة في مظهره مما تعودوا عليه. كان هذا الرجل قوياً. ولا تستطيع الاقتراب منه الا وأنت خائف. إن فيه «علامة». وتستطيع ان تفسر هذا الأمر بأية طريقة تشاء. والناس يريدون دائماً ما هو مقبول لديهم وما يجعلهم على صواب. كانوا يخافون من أولاد قابيل: انهم يحملون «علامة». ولذا لم يفسروا العلامة كما هي عليه ـ كعلامة تمييز ـ بل بعكسها. قالوا: «هؤلاء الناس ذوو العلامة؛ انهم قوم غرباء» وهذا صحيح. والناس الذين يتحلون بالشجاعة وقوة الشخصية يبدون دائماً أشراراً للآخرين. وكان من المخزي وجود سلالة من البشر الأشرار الذين لا يخافون وهم يتصرفون على هواهم، ولذا فإن الناس ابتكروا اسماً وأسطورة لهؤلاء لكي يتمكنوا من التعامل معهم ولتبرير المرات التي أحسوا فيها بالخوف منهم ـ هل أنت معي؟

ـ نعم ـ أقصد ـ في هذه الحالة لا يعتبر قابيل شريراً أبداً؟ والقصة المذكورة في التوراة، كلها، ليست موثوقة تماماً.

ـ نعم ولا قصص مغرقة في قدمها كهذه هي دائماً قصص صحيحة، ولكن ربما لم تكن تسجل دائماً بشكل صحيح ولم تكن تعطى التفسيرات الصحيحة. ما أعنيه، باختصار، هو أن قابيل كان شخصاً ظريفاً وان هذه القصة قد ارتبطت به لمجرد ان الناس كانوا يخافونه. القصة، ببساطة، عبارة عن شائعة، شيء مما يثرثر

الناس به، وهي صحيحة في ما يتعلق بوجود علامة لدى قابيل وأبنائه، وباختلافهم عن معظم الناس.

صعقت.

وسألته مندهشاً: وهل تعتقد أن مسألة قتله لأخيه هي أيضاً غير صحيحة؟

هذه صحيحة طبعاً القوي قتل الضعيف. ولكن من المشكوك فيه أن يكون أخاه. غير ان هذا غير هام بالمعنى المطلق الناس كلهم أخوة. وهكذا قام شخص قوي بقتل شخص ضعيف؛ ربما كان العمل في حقيقته بطولياً وربما كان غير ذلك. وفي أية حال صار الضعفاء كلهم يخافون منه منذ ذلك العمل. وكانوا يتشكّون بمرارة. ولو انك سألتهم لم لا ترتدون عليه وتقتلونه أيضاً؟ فانهم لا يجيبون: «لأننا جبناء» بل يقولون «ليس هذا ممكناً انه يحمل علامة. الله قد علمه وميزه. ولا بد ان الخداع قد بدأ بشكل ما على هذا النحو ـ آه. عفواً أرى أنني قد أَخَّرتك. وداعاً

انعـطف إلى ألتغاس وتركني واقفاً أكثر حيرة مما سبق ان كنت في حياتي كلها ولكن فور ذهابه بدا لي كل ما قاله غير معقول. قابيل انسان نبيل! هابيل جبان! علامة قابيل علامة تميز. هذا غير منطقي، بل هو تفكير كافر وشرير. كيف يُبرِّر الله إذن؟ ألم يتقبل قربان هابيل؟ ألم يكن يحب هابيل؟ لا ما قاله دميان هو الجنـون بعينه ورحت أشك في انه كان يريد ان يسخر مني وأن أفقد توازني صحيح انه بارع ويعرف كيف يتحدث لكنه لا يستطيع ان يمرر امراً كهذا ليس عليّ على الأقل!

لم يسبق لي ان فكرت في قصة توراتية أو أية قصة أخرى بهذا المقدار. وكان قد مر وقت طويل لم استطع فيه نسيان فرانز كرومر نسياناً تاماً، ولو لساعات أو طوال ليلة كاملة. في البيت اعـدت قراءة القصـة كمـا هي مكتوبة في التوراة. كانت مختصرة وغامضة وكان من الجنون البحث عن معنى خاص مخبوء إن كان الأمر كذلـك فإن أي قاتل يستطيع أن يعلن انه حبيب الله لا، ما قاله دميان سخف

وهراء. لكن ما سرني هو ذلك اليسر والبهاء اللذان بهما كان قادراً على قول أشياء كهذه؛ وكأن كل شيء في غاية الوضوح. وأخيراً تلك النظرة في عينيه! ولكن، لقد حدث لي شيء هام: تشوشت حياتي تماماً كنت أعيش في عالم نظيف وصحي كنت، أنا، نوعاً من هابيل. وهاأنذا الآن أُلقى في أعماق «العالم الآخر». لقد سقطت فيه ورحت أغرق ـ ولكن الأمر لم يكن، كله، خطئي! كيف سأدرك ذلك؟ وسطعت في أعماقي ذكرى جعلتني أحبس أنفاسي لوهلة. في ذلك المساء المصيري، عندما بدأ شقائي، حدث ذلك الأمر مع والدي. ويومها، لوهلة، استطعت التغلغل فيه وفي عالمه المشكَّل من النور والحكمة ولم أحس بالرهبة بل بالاحتقار. نعم في تلك اللحظة، أنا، الذي كنت قابيل والذي يحمل العلامة، خطر لي ان هذه العلامة ليست علامة خزي وانه بسبب شروري وسوء طالعي قد صرت متفوقاً على أبي وعلى الأتقياء والأخيار.

لم تمر بي اللحظة على هذا النحو، من خلال أفكار واضحة، ولكن هذا كله كان موجوداً فيها؛ انه جيشان انفعالات ودوافع غريبة آلمتني إلا انها، في الوقت ذاته، ملأتني زهواً.

وحين تأملت في الغرابة التي تحدث بها دميان عن الجَسور والجبناء وفي المعنى الغريب وغير العادي الذي اعطاه للعلامة التي يحملها قابيل على جبينه، وكيف التمعت عيناه المتميزتان الناضجتان؛ التمع في ذهني السؤال حول ما اذا لم يكن دميان، نفسه، نمطاً من أنماط قابيل. لم يدافع عن قابيل إن لم يكن يحس بتشبه به؟ ولم له هذه التحديقة القوية؟ ولم يتحدث بهذا الاحتقار عن «الآخرين»، الجبناء الذين هم ورعون. وهم المختارون من قبل الله؟

لم أستطع الوصول بهذه الأفكار الى أية نتيجة، لقد القي حجر في البئر، والبئر هي روحي الفتية. ولفترة طويلة شكلت مسألة قابيل والعلامة نقطة الافتراق لمحاولاتي في الادراك والشك والنقد.

لاحظت ان لدميان تأثيراً ساحراً مشابهاً على الآخرين. لم أخبر أحداً بطريقته في طرح قصة قابيل، لكن الآخرين بدوا مهتمين به أيضاً. وقد انتشرت شائعات كثيرة حول «الولد الجديد». ولو استطعت تذكرها كلها الآن لأضافت كل واحدة منها ضوءاً جديداً عليه ولأمكن تفسيرها. أتذكر أولاً ما قيل من أن أمه ثرية وانها لم يسبق لها، أو لابنها، أن ذهبا الى الكنيسة. وقالت إحدى الحكايات إنهما يهوديان لكن من الممكن أيضاً ان يكونا، في السر، مسلمين. ثم القوة الجسدية الأسطورية لماكس دميان. لكن هذه المسألة يمكن إثباتها: وذلك عندما استفزه أقوى ولد في صفه وسخر منه ورفض دميان أن يرد بالقتال فنعته الآخر بالجبن وعندها أذله دميان. قال الذين كانوا حاضرين إن دميان أمسك الولد الآخر بقوة من عنقه، وبيد واحدة، وظل يشدّ قبضته حتى شحب وجه الولد الآخر. فيما بعد توارى الولد وظل اسبوعاً كاملاً عاجزاً عن استخدام يده. حتى ان بعض الأولاد ادعوا، ذات مساء انه قد مات. مرت فترة وكل شيء فيها، حتى أكثر الأشياء غرابة وشطحاً، كان قابلاً للتصديق، وبعد ذلك مرت فترة أخرى بدا فيها وكأن الجميع قد شبعوا من الحديث عن دميان. ولكن لم يمر وقت طويل حتى كان اللغط قد عاد: بعض الاولاد أفادوا ان لدميان علاقات طيبة مع الفتيات وانه كان «يعرف كل شيء».

وفي الوقت ذاته كانت مشكلتي مع كرومر تسير في طريقها المحتوم. لم أستطع التخلص منه وذلك لأنني، حتى حين كان يتركني لعدة أيام، كنت أظل أسيره. كان يملأ عليّ أحلامي. وما لم يستطع اقترافه بحقي في الحياة الواقعية كان خيالي يتيحه له في تلك الاحلام التي كنت فيها عبداً له. لقد كنت دائماً شخصاً كثير الاحلام. وفي الأحلام أكون أكثر نشاطاً مما أنا عليه في الحياة الواقعية. وهذه الظلال كانت تستنزف صحتي وطاقتي. وكان الكابوس المتكرر ان كرومر يسيء معاملتي دائماً ويبصق عليّ ثم يركع فوقي. والأسوأ من هذا كله كان يدفعني لاقتراف أشنع الجرائم - أو في الحقيقة لم يكن يدفعني بل يضطرني من خلال القدرة الخالصة على الإقناع. وأسوأ هذه الأحلام، والذي كنت أستيقظ منه نصف

مجنون، يرتبط باعتداء إجرامي على والدي. كان كرومر يشحذ السكين ويضعها في يدي؛ ونقف معاً وراء بعض الأشجار في ممر ما لنكمن بانتظار شخص ما لا أعرف من هو. وحين يقترب هذا الشخص يقرصني كرومر من ذراعي لينبهني إلى أن هذا هو الذي يجب ان اطعنه ـ ويكون أبي. وعندها أستيقظ.

وعلى الرغم من انني ما ازال اربط بين هذه الاحداث وبين قصة قابيل وهابيل فإنني لم أكن أفكر كثيراً بماكس دميان. وعندما عاد إلى الاحتكاك بي، بعد ذلك، فقد كان ذلك في الحلم أيضاً. كنت ما أزال أحلم بأنني أتعرض للتعذيب، ولكن هذه المرة كان دميان هو الذي يركع فوقي والجديد والأكثر تأثيراً عليّ كان ان كل ما كنت أقاومه وما كان مصدر عذاب لي حين كان كرومر هو المعذِّب كنت أتقبله بسرور على يد دميان، وبشعور أقرب الى النشوة منه الى الخوف. لقد تكرر الحلم مرتين. ثم عاد كرومر ليحتل مكانه.

مرت سنوات وأنا غير قادر على التمييز بين ما اتعرض له في هذه الأحلام، وبين ما أتعـرض له في الحياة الواقعية. في كل حادث كانت العلاقة السيئة مع كرومر تستمر ولم يكن هناك سبيل لإنهائها حتى بعد ان وفيت ديني من خلال عدد من السرقات الصغيرة. بل انه الآن صار يعرف بهذه السرقات الجديدة لأنه، في كل مرة، كان يسـألني من أين حصلت على النقـود فأزداد خضوعاً له. حتى انه هددني بأن يحكي كل شيء لأبي. ولكن، وحتى في هذه الحالة، كان خوفي أقل من أسفي العميق لأنني لم أقم بإبلاغ أبي بنفسي، منذ البداية. وفي الوقت ذاته، وعلى الـرغم من شقائي، فإنني لم آسف لكل ما جرى، وعلى الأقل لم آسف بشكل دائم، بل انني بين حين وآخر كنت أشعر ان ما جرى كان لا بد له ان يجري وبالطريقة ذاتها. لقد كنت بين يدي القدر. وكان من العبث أن أحاول الفرار.

ولا بد ان والديَّ كانا تعيسين للحالة التي كنت فيها. لقد سيطرت عليّ روح غريبـة فلم أعـد متـلائماً مع من حولي والذين كنت متآلفاً معهم. وكثيراً ما كان يتملكني توق عنيف للعودة إليهم وكأنهم فردوس مفقود. أمي، بالأخص، عاملتني

كمريض أكثر مما عاملتني كوغد. ولكنني كنت قادراً على معرفة وضعي الحقيقي في العائلة من خلال موقف أخواتي كن متساهلات معي إلى أبعد الحدود مما يوضح أنني كنت أُعتبر، بشكل ما، مجنوناً؛ شخصاً يستحق الشفقة أكثر مما يستحق اللوم، ولكنه مع ذلك تحت رحمة الشيطان. كن يصلين من أجلي بحماس غير عادي. وشعرت ببؤس لا حدود له حين عرفت ان لا جدوى من هذه الصلاة. وشعرت بحاجة ملحة للتخفيف عن نفسي، وللاعتراف المخلص، غير انني كنت أشعر مسبقاً بأنني لن أستطيع اخبار أبي وأمي أو شرح شيء بشكل ملائم. كنت أعرف ان كل ما سأقوله سيتم تلقيه بنوع من الشفقة وأنهما، نعم، سيأسفان لحالتي، ولكنهما لن يفهما وسيتم النظر الى الأمر كله على انه ضلال مؤقت، بينما في الحقيقة كان هذا قدري.

وأنا أعرف ان هناك من لا يصدق ان طفلاً في حدود العاشرة من عمره يمكن أن تكون لديه هذه المشاعر. ولكن قصتي ليست موجهة اليهم. انني احكيها الى من لديهم معرفة افضل بالانسان. والانسان البالغ الذي تعلم كيف يحول جزءاً من مشاعره الى أفكار سيلاحظ عدم وجود أفكار كهذه لدى طفل ولذا فهو يعتقد ان الطفل ليست لديه هذه الخبرات ايضاً. غير انني قلما حدث لي في حياتي ان كانت لدي مشاعر ومعاناة مثلما كانت لديّ في تلك الفترة.

نزل المطر ذات يوم. وكان كرومر قد أمرني بملاقاته في برغبلاتز، فوقفت هناك انتظره متنقلاً بين أوراق الكستناء التي كانت ما تزال تتساقط من الأشجار السوداء الرطبة. لم يكن معي نقود، لكنني استطعت الاحتفاظ بقطعتين من الكعك وجلبهما معي لكي أستطيع ان اقدم على الأقل شيئاً ما لكرومر. كنت قد الفت الوقوف في زاوية معينة لانتظاره، ولو لوقت طويل، وتقبلت الأمر كما يتعلم المرء تحمل ما لا بد منه.

وظهر كرومر أخيراً. لم يبق كثيراً. لكزني على صدري عدة مرات وضحك ثم أخذ الكعكتين. حتى أنه قدم لي لفافة مطفأة (لم أقبلها) وكان أكثر وداً مما

عهدته.

صحيح، قال بلا مبالاة قبل أن يذهب، «قبل أن أنسى. تستطيع أن تجلب أختك في المرة القادمة. أختك الكبرى، ما اسمها؟

لم أفهم ما يقصده فلم أجب. ظللت أتطلع إليه مندهشاً.

ألا تفهم؟ عليك أن تجلب أختك.

ـ لا يا كرومر هذا مستحيل. لن يُسمح لي بذلك وهي لن تقبل المجيء مهما كان الأمر.

كنت مستعداً لخديعته، أو ذريعته، الجديدة تلك. كثيراً ما كان يفعل ذلك. يطلب شيئاً مستحيلاً يخيفني ويذلني؛ ثم، تدريجياً، يساومني ويكون عليّ أن أفتدي نفسي ببعض النقود أو بهدية.

ولكن الأمر، هذه المرة، كان مختلفاً لم يبد عليه أن رفضي قد أثار غضبه.

قال بلهجة واقعية محايدة: «على أية حال، فكر في الأمر، بودي لو أقابل أختك. ولا بد ان تجد طريقة لذلك ذات يوم تستطيع ببساطة ان تأخذها معك في نزهة ثم انضم اليكما. سأصفر لك غداً وعندها نستطيع ان نتحدث في الموضوع».

بعد أن ذهب توضح لي بشكل مفاجىء أمر ما في طبيعة طلبه. كنت ما أزال جاهلاً بهذه الأمور ولكنني كنت أعرف من الأقاويل أن الأولاد والبنات حين يكبرون يصبحـون قادرين على ان يقوموا، معاً، بأشياء معينة غامضة وبغيضة وممنوعة. والآن يفترض بي أن ـ وبغتة لمعت في ذهني شيطانية طلبه. وعرفت، فوراً، انني لن افعلها. ولكن ما الذي سيحدث بناء على ذلك؟ أي انتقام سينتقمه مني كرومر؟ لم أجرؤ على التفكير في الأمر. كان هذا بداية لعذاب جديد لي.

رحت أمشي في الساحة المهجورة، وقد أغلقت الدنيا في وجهي، ويداي في جيبي. هناك عذابات أكبر وأعظم تنتظرني!

وبغتة ناداني صوت قوي مرح، أجفلت خائفاً وبدأت أركض هارباً. كان هناك شخص ما يركض ورائي وأمسكت بي يد من الخلف. كان هذا ماكس دميان.

قلت بقلق: آه. هذا أنت! لقد تسببت لي بمفاجأة مخيفة.

تطلع إليّ بازدراء، لم يسبق لنظرته ان كانت أكثر بلوغاً أو تفوقاً، إنها نظرة شخص قادر على سبر أغواري، ولم نتبادل الكلام لفترة طويلة.

أنا آسف قال بأسلوبه المؤدب الحازم. اسمع. لا يجوز أن تخاف هكذا.

ـ قد لا يستطيع المرء منع ذلك.

ـ يبدو ذلك، ولكن اسمع. حين تتشظى أمام شخص لم يتسبب لك بأذى فان هذا الشخص سيبدأ بالتفكير. يدهش ويتساءل ويعتبر انك شديد التوتر ثم يتوصل إلى نتيجة مفادها ان الناس يصبحون كلهم هكذا حين يشلهم الخوف. الجبناء يظلون خائفين. ولكنك لست جباناً. هل أنت كذلك؟ وبالتأكيد أنت أيضاً لست بطلاً. هناك أمور تخاف منها، وأناس أيضاً تخاف منهم. وهذا يجب ان لا يحدث. يجب ان لا تخاف من الناس. لست خائفاً مني. أم انك خائف؟

لا لا أبداً.

ـ تماماً، ولكن هناك أناس تخاف منهم.

لا أعرف لم لا تتركني وشأني؟

ظل يماشيني ـ كنت قد سارعت خطاي وأنا أنوي الهرب ـ وأحسست به يتطلع إليّ من الجانب.

وابتدأ من جديد: لنفترض أنني لا أريد أن ألحق بك أي أذى. على أية حال ليست هناك حاجة لأن تخاف منه. بودي لو أجري عليك تجربة. قد تكون مسلية وقد تتعلمْ منها شيئاً. انتبه الآن ـ انني، أحياناً، أمارس فناً يعرف بقراءة الأفكار. ليس فيه سحر. ولكن إن لم تعرف كيف يتم، فقد يبدو لك خارقاً. وتستطيع ايضاً

ان تبهر الناس به. فلنجربه الآن. اسمع. أنا أحبك. أو أنني مهتم بك. وبودي لو اكتشف ما يدور في داخلك. ولقد حققت حتى الآن الخطوة الأولى في هذا الاتجاه: فلقد اخفتك ـ ولذا فأنت الآن عصبي. لا بد ان هناك اشياء وأناساً يخيفونك. وحين تخاف من شخص ما فالسبب الأكثر منطقية هو أن هذا الشخص يمسك شيئاً ما عليك، مثلاً انت ارتكبت خطأ ما والشخص الآخر يعرف بذلك ـ انه يمسك بخناقك. هل فهمتها؟ إنها واضحة أليس كذلك؟

رفعت رأسي أتطلع عاجزاً إلى وجهه الذي كان جاداً وذكياً ولطيفاً كما عهدته دائماً لكن صرامته المحايدة كان ينقصها الحنان. كان التجرد، أو شيء يشبهه، جلياً في وجهه. ولم أدرك ما الذي كان يحدث لي: كان يقف أمامي مثل ساحر.

ـ هل فهمتها؟ سألني مجدداً.

وهززت برأسي عاجزاً عن الكلام.

قلت لك إن قراءة أفكار الآخرين قد تبدو غريبة لكنها طبيعية تماماً. مثلاً قد أستطيع إخبارك، وربما بدقة، عما فكرته عني بعد أن حكيت لك قصة قابيل وهابيل. ولكن ليس هذا وقته. ولعلي أظن أنك ربما حلمت بي ذات يوم. ولكن سندع هذا كله جانباً أنت لمّاح ومعظم الناس أغبياء. وأحب ان اتحدث مع من هو لمّاح بين حين وآخر، مع شخص أستطيع أن أثق فيه. لن تعترض. أليس كذلك؟

ـ طبعاً لا لكنني لا افهم

دعنا نتابع تجربتنا المسلية الآن. لقد اكتشفنا ان الولد (س) يخاف بسرعة ـ انه يخاف من شخص ما ـ إذن فهناك سر مشترك بينهما، وهو سر يجعله يشعر بالقلق. بشكل عام هل هذا قريب من الحقيقة؟

وكما لو كنت في حلم فقد استسلمت لصوته وتأثيره. بدا كما لو أن صوته يصدر عن أعماقي وكان يعرف كل شيء. فهل كان يعرف كل شيء بشكل أفضل وأكثر وضوحاً مما أعرف أنا؟

ضربني دميان بشدة على كتفي :

ـ هذا هو الأمر إذن. ظننت انه قد يكون هكذا. والآن سؤال آخر فقط : هل تعرف اسم الولد الذي افترقت عنه هناك في برغبلاتس؟

ارتعبت. لقد لمس سري.

أي ولد؟ لم يكن هناك أي ولد. كنت وحدي.

ـ خلصنا وضحك. ما اسمه؟

همست: هل تعني فرانز كرومر؟

وهز رأسه مقتنعاً:

ـ عظيم. انت على حق. سنصير أصدقاء. ولكن في البدء عليّ أن أقول لك شيئاً: كرومر، هذا، أو مهما كان اسمه، ينبئني وجهه بأنه سافل من الدرجة الأولى، ما رأيك؟

ـ صحيح ـ وتنهدت ـ إنه سيء جداً ولكن يجب أن لا يسمع بذلك. لخاطر الله يجب ان لا يكتشف أي شيء. هل تعرفه؟ هل يعرفك؟

ـ إهدأ. لقد ذهب وهو لا يعرفني ـ لم يعرفني بعد. لكنني أود لو ألتقي به. إنه يدرس في المدرسة الشعبية، أليس كذلك؟

نعـــم

ـ في أي صف هو؟

الخامس. ولكن أرجوك لا تخبره بشيء.

لا تخف. لن يحدث لك شيء. أفهم أنك لا تريد أن تخبرني بشيء آخر عن كرومر هذا؟

لا أستطيع.

صمت قليلاً: للأسف. كنا استطعنا أن ننقل التجربة الى مرحلة أخرى. ولكنني لا أريد إزعاجك. على أية حال أنت تدرك ان خوفك منه غلط. أليس كذلك؟ خوف كهذا يمكن له ان يدمرنا تدميراً تاماً يجب أن نتخلص منه إذا كنت

ترغب في أن تصير لطيفاً ـ أنت تفهم الموضوع. أليس كذلك؟

ـ طبعاً أنت محق تماماً لكن الأمر معقد جداً ليست لديك فكرة.

ـ لقد رأيت انني أعرف قليلاً من الأمور عنك أعني أكثر بكثيرٍ مما تخيلت ـ هل أنت مدين له بنقود؟

ـ نعم وهذا أيضاً. لكنه ليس الموضوع الأساسي. لا أستطيع أن أخبرك. لا أستطيع وكفى.

ألن يكون مفيداً لو أعطيتك المبلغ الذي أنت مدين به؟

ـ لا، ليس هذا هو الأمر. وانت تعد بأن لا تخبر أحداً بالأمر. ولا كلمة. ألا تعد؟

ـ تستطيع ان تثق بي يا سنكلير وتستطيع في وقت آخر أن تحكي لي سرك.

ـ أبداً. صرخت بأعلى صوتي.

ـ كما تشاء. كل ما كنت اعنيه هو انك ربما أخبرتني بالمزيد في وقت آخر. وبرغبتك طبعاً. وانت لا يخطر لك انني سأعاملك كما يعاملك كرومر. هل تشك بذلك؟

لا ـ ولكن ما الذي تعرفه عن ذلك بالمناسبة؟

ـ لا شيء مجرد انني فكرت بالموضوع وعرفت انني لن اعاملك مثل كرومر. تستطيع ان تثق بذلك. وإضافة الى ذلك انت لست مديناً لي بشيء.

مر وقت طويل دون أن نتكلم بعد ذلك، وبدأت أهدأ. لكنني وجدت معرفة دميان بالأمر محيرة.

ـ سأذهب الى البيت الآن. قال ذلك وهو يلف معطفه حول جسمه تحت المطر. «أمر واحد آخر أود أن أقوله لك طالما اننا وصلنا الى هذا الحد ـ يجب ان

تتخلص من هذا السافل! وإن لم تكن هناك طريقة أخرى فاقتله. سيسرني ويعجبني أن تفعلها. بل إنني سأساعدك.

وبغتة عادت إلي قصة قابيل فخفت من جديد. وبدأ كل شيء يصبح منذراً بالشؤم بالنسبة لي حتى رحت أنشج. إنني محاط بالكثير مما لا أعرفه.

«حسن إذن» ابتسم ماكس دميان: «عد إلى البيت. سنجد طريقة. على الرغم من ان قتله أفضلها وصديقك كرومر هذا ليس أفضل صديق تحصل عليه».

سلكت الطريق الى بيتي ـ وبدا لي كما لو انني قد ابتعدت عنه عاماً كاملاً. كل شيء فيه بدا مختلفاً. ان شيئاً اشبه بالمستقبل، أو الأمل، صار الآن يفصلني عن كرومر. لم أعد وحيداً. والآن فقط أدركت كم كنت وحيداً مع سري خلال عدة اسابيع، وبغتة خطرت لي فكرة كانت قد خطرت لي عدة مرات من قبل: أن آعترافاً لوالديَّ سيخفف من أعبائي لكنه لن يخلصني منها نهائياً. أما الآن فأنا أكاد أكون قد اعترفت، لآخر، لغريب والاحساس بالخلاص كان شبيهاً بالنسيم العليل.

غير ان خوفي لم يتم التغلب عليه نهائياً. وتهيأت لسلسلة طويلة من المشاحنات الضارية مع عدوي. ولهذا كان من الملحوظ ان الامور أخذت مجرى هادئاً وحذراً.

مر يوم، ويومان، وأسبوع كامل لم تنطلق صفرة كرومر قرب بيتنا. ولم أستطع أن أصدق فكنت أنتظر بشكل دائم اللحظة التي فيها سيعود إلى الظهور بغتة ودون توقع. بدا وكأنه قد اختفى ولتشككي بحريتي الجديدة، رفضت أن أصدقها إلى أن التقيت بفرانز كرومر. حين رآني أُجفِلَ وتقلص وجهه، ثم التفت وكأنه يريد ان يتجنب الالتقاء بي

كانت بالنسبة لي لحظة لا سابق لها. عدوي يهرب مني، شيطاني يخاف مني. وغمرتني رعشة الدهشة المفاجئة.

والتقيت، ذات يوم، مرة أخرى بدميان. كان ينتظرني أمام المدرسة.

قلت   مرحبا.

- صباح الخير يا سنكلير   كنت أريد، فقط، أن أطمئن كيف تسير الأمور معك. كرومر لم يعد يزعجك. أليس كذلك؟

أهي فعلتك؟ كيف تدبرتها؟ لا أفهم الأمر أبداً   لقد ابتعد عني نهائياً.

- ممتاز   ولكن إذا ظهر من جديد - ولا أظنه سيفعل، على الرغم من أنه من النوع الذي لا يرحم - فيكفي أن تقول له أن لا ينسى ماكس دميان.

- ولكن ما الرابط بينهما؟ هل تشاجرت معه وهزمته؟

لا   ليست هذه طريقتي في معالجة الأمور. اكتفيت بمحادثته مثلما حادثتك واستطعت أن أوضح له ان من مصلحته أن يتركك وشأنك.

أرجو أن لا تكون قد دفعت له نقوداً.

لا   هذا أسلوبك أنت.

وزاغ عن أسئلتي كلها ثم تركني وأنا محمل بالشعور القلق تجاهه، الشعور ذاته الذي كنت احمله له من قبل؛ مزيج غريب من الامتنان والرهبة، من الاعجاب والخوف، من الود والنفور الداخلي.

قررت أن أبحث عنه وأحادثه مطولاً حول هذه المسائل كلها، مثلما سأحادثه عن مسألة قابيل.

لكن الأمور لم تتم هكذا

ليس الامتنان بالفضيلة التي أؤمن بها، وأعتقد انه شيء من النفاق أن نتوقع ذلك من ولد. ولهذا فان نكراني للجميل، كلياً، تجاه ماكس دميان لم يدهشني أبداً   وأنا اليوم موقن تماماً أنني كنت سأمرض وأدمر حياتي لو أنه لم يخلصني من براثن كرومر. وحتى في ذلك الحين كنت أعي أن هذا التحرير هو أعظم تجربة في حياتي - لكنني هجرت المحرر نفسه حالما حقق معجزته.

وكما سبق أن قلت، إن نكران الجميل لا يفاجئني. لكن ما يربكني، في استعادة الأحداث، هو قلة فضولي كيف استطعت أن أواصل حياتي ليوم واحد دون أن أحاول الاقتراب من السر الذي كشفه لي دميان؟ كيف حدث انني لم ارغب في سماع المزيد عن قابيل، والمزيد عن كرومر، والمزيد عن قدرة دميان على قراءة أفكار الآخرين؟

انه لأمر لا يصدق ولكنه كان يحدث. بغتة وجدت نفسي وقد تخلصت من متاهة شيطانية. ومرة أخرى عدت أرى العالم مشرقاً وسعيداً أمامي ولم يعد خاضعاً لتقلبات الخوف الخانق. لقد تحطمت التعويذة ولم أعد عرضة للّعنة والتعذيب. عدت، مرة أخرى، تلميذاً وراح وجودي كله يحاول استعادة توازنه الهادىء بأسرع ما يمكن، باذلاً جهداً خاصاً لمقاومة الأشياء البشعة المتوعدة التي عرفتها ونسيانها. وقصة غلطي وخوفي تسربت من ذاكرتي بسرعة لا تصدق ودون ان تترك، ظاهرياً، أية ندوب أو رسوبات انفعالية.
لكنني أستطيع ، اليوم، ان افهم لماذا بذلت جهدي لكي أنسى مخلصي بهذه السرعة. لقد هربت من وادي الحزن، من ارتباطي الرهيب بكرومر، وبكل القوة التي تسيطر عليها روحي المتألمة؛ وعدت الى حيث صرت سعيداً وراضياً، الى الفردوس المفقود الذي كان من جديد ينفتح لي، إلى العالم الوضاء المنتظم الذي قوامه الأب والأم والأخوات ورائحة النظافة وتقوى هابيل.

وفي اليوم التالي لمحادثتي القصيرة مع دميان، وبعد أن اقتنعت تماماً بأنني قد استعدت حريتي ولم أعد خائفاً من فقدانها مرة أخرى، قمت بما كنت أود أن أقوم به دائماً وبإخلاص ـ قمت بالاعتراف. ذهبت إلى أمي وجعلتها ترى الحصالة المخرَّبة والتي فيها نقود اللعب وحكيت لها كم مضى عليّ وأنا أربط نفسي، من خلال خطئي، بمعـذِّبي الشرير. لم تفهم الأمر كله ولكنها رأت؛ رأت تعابيري المتغيرة وسمعت التغيير في نبرة صوتي، وشعرت بأنني قد شفيت وأنها استعادتني

والآن بدأ عيد قبولي مجدداً في القطيع، بدأت عودة الابن الضال. أخذتني

أمي إلى أبي، وأعيدت الحكاية. كانت هناك استفسارات وتعابير عن الدهشة. وربت الوالدان معاً على رأسي وتنفسا الصعداء بعد فترة طويلة من الغم. كان كل شيء رائعاً. حدث كل شيء كما في القصص التي قرأتها؛ وذاب كل شيء في اتساق وتناغم مدهشين.

تراخيت على قناعة انني قد استعدت هدوء بالي وثقة أبويّ. وصرت، في البيت، نموذج الولد المثالي، ألعب مع أخواتي أكثر مما مضى وأثناء جلسات الدعاء كنت أنشد ترنيماتي المفضلة بحميّة مَنْ تحقق خلاصه واهتدى. كانت تنبع من قلبي ولا زيف أو زَيَغ فيها.

ولكن لم تترتب الأمور كلها. وهذه هي الحقيقة التي تفسر إهمالي لدميان. كان من واجبي أن أعترف **له**. وكان الاعتراف سيأتي أقل عاطفية وتأثيراً؛ إلا انه كان سيصبح أكثر جدوى وفائدة. لقد عدت إلى عالمي العَدَني السابق. ولم يكن هذا عالم دميان ولم يكن من الممكن له ان يتلاءم معه. فهو أيضاً مُغْوٍ ولو بطريقة مختلفة عن كرومر. هو، أيضاً، حلقة وصل مع العالم الآخر الشرير الذي لم أعد أريد أن تكون لي أية علاقة به. لم أكن أريد أن أضحي بهابيل من أجل تمجيد قابيل، ليس الآن على الأقل بعد ان صرت مرة اخرى (هابيل).

كانت تلك هي الأسباب السطحية. أما الأسباب العميقة فهي كما يلي: لقد تحررت من ربقة كرومر والشيطان، ولكن ليس بقوتي أو بجهودي. إنني حاولت أن أعبر متاهة العالم ولكن تبين ان الطريق صعب جداً عليّ أما وقد حررتني يدٌ صد.يقة فقد انسحبت دون أن ألتفت يمنة أو يسرة بل ذهبت مباشرة إلى حضن أمي وإلى أمان الطفولة البريئة المحمية حولت نفسي إلى شخص أصغر وأكثر اتكالية وطفولة مما كنت. وصار عليّ أن أستبدل اتكالي على كرومر باتكالي على شخص آخر جديد فقد كنت عاجزاً عن السير وحيداً. وهكذا، وفي طيش الفؤاد اخترت أن أتكل على أبي وأمي، على «عالم النور» القديم المرتجى، على الرغم من انني قد عرفت الآن انه لم يكن العالم الوحيد. ولو انني لم أسلك هذا السبيل لكان عليّ

أن أرسو على دميان وأمنحه ثقتي. وكوني لم أفعل ذلك في حينه بدا لي نتيجة لشكي المبرر بأفكاره الغريبة. والحقيقة ان السبب كان خوفي وحده. فدميان كان سيثبت أنه ذو مطالب أكثر بكثير من والديَّ. كان سيحاول جعلي أكثر استقلالية باستخدام الإقناع والنصح والهزء والسخرية. ولقد أدركت اليوم أنه ما من شيء في الدنيا أكثر إثارة للاشمئزاز للإنسان من اختياره الطريق الذي يوصله الى نفسه.

لكنني بعد ستة أشهر لم يعد في وسعي مقاومة الإغواء فسألت أبي، ونحن نتمشى، عما يستنتجه المرء من حقيقة ان بعض الناس يرون قابيل افضل من هابيل.

أخذ أبي على حين غرة ثم شرح لي أن هذا التفسير تنقصه الأصالة، وأنه قد طُرح أيامَ العهد القديم ودعت إليه عدة مذاهب يسمى أحدها «القابيليون». لكن هذا المبدأ السخيف، بالطبع، لم يكن إلا محاولة من قبل الشيطان لإفساد إيماننا. ذلك انه إذا آمن إنسان بأن قابيل على حق وهابيل على خطأ فسينجم عن ذلك ان الله قد أخطأ. وبمعنى آخر أن الله الذي في التوراة ليس الإله الخيّر والوحيد بل هو إله زائف. والحقيقة ان القابيليين كانوا يدعون الى شيء من هذا القبيل. لكن هذه الهرطقة قد اختفت منذ زمن بعيد عن وجه الأرض. وانه الآن مندهش فقط من ان أحد زملائي في المدرسة قد سمع بذلك. وحذرني بكثير من الجدية من اعتناق أفكار كهذه.

٣ - بيـن اللصـوص

لو شئت لاستذكرت عدة فترات جميلة من طفولتي   الاحساس بالأمان الذي منحني إياه أبواي ؛ وطبيعتي العاطفية والعيش اليسير في رضى ومرح وسط أشياء لطيفة تحيط بي   لكن اهتمامي متركز على الخطوات التي اتخذتها للوصول الى نفسي   إنني أترك ورائي في البعيد الفاتن الساحر كافة لحظات الهدوء وجزر السلام والأمان التي أحسست بها   ولم أعد أطلب أبداً أن أضع قدمي فيها

ولهذا ـ وبما أنني ما أزال عند طفولتي ـ سأركز على الأمور التي جاءتها من الخارج ، والتي كانت جديدة والتي دفعتني الى الأمام أو أقصتني

وهذه الدوافع كانت تأتي دائماً من «العالم الآخر» وكانت مصحوبة بالخوف والارتباك والضمير المتعب. كانت دائماً محرضة وكانت تهدد السكينة التي كنت أتمنى بسرور ان استمر في العيش فيها.

ثم جاءت تلك السنوات التي أجبرت فيها على تلمس وجود دافع في داخلي كان مضطراً للتصاغر والاختفاء عن عالم النور. لقد تغلب عليّ الاحساس المتيقظ ببطء بدوافعي الجنسية ، مثلما يتغلب على كل إنسان ، مثل عدو وإرهابي ، مثل شيء ممنوع ومُغوٍ ومغمس بالخطيئة . وما كان يبحث عنه فضولي وما ولّد فيَّ من أحلام وشهوات ومخاوف ـ السر العظيم للبلوغ ـ لم يعد أبداً يتلاءم وطفولتي

المحمية. كنت أتصرف مثل غيري. وبدأت اعيش الحياة المزدوجة للطفل الذي لم يعد طفلاً كانت نفسي الواعية تعيش داخل العالم المألوف والموافق عليه والذي ينكر العالم الجديد الذي أشرق في داخلي وجنباً الى جنب مع هذا العالم كنت أعيش في عالم آخر من الأحلام والنوازع والرغبات ذات الطبيعة المختلفة، والتي عبرها كانت نفسي الواعية تبذل قصارى جهودها لمد جسور هزيلة وهشة؛ ذلك ان عالم الطفولة في داخلي كان يتداعى ومثلما هو الأمر لدى معظم الآباء فإن أبويّ لم يستطيعا أن يقدما يد العون لي وأنا أواجه مشكلات البلوغ الجديدة، التي لم تتم الاشارة اليها أبداً كل ما فعلاه هو الوقوع في مشكلة لا نهاية لها في محاولتهما لدعم محاولاتي اليائسة لإنكار الحقيقة وللاستمرار في المكوث داخل عالم الطفولة الذي بدأ، شيئاً فشيئاً، يتحول الى عالم غير حقيقي لم تكن لديّ فكرة عما اذا كان الأبوان قادرين على المساعدة؛ ولذا فإنني لم أعتب على والديَّ. انها مشكلتي أن أتوازن مع نفسي وأن أعثر على طريقي. ومثلي مثل معظم الأولاد حسني التربية تصرفت بشكل غير صحيح.

كل إنسان يمر في هذه الأزمة. وللشخص العادي تلك هي النقطة التي تتعارض فيها بحدة متطلبات حياته الجديدة مع بيئته، والتي فيها التقدم الى الأمام يجب أن يتحقق بأردأ الوسائل المتوفرة لديه. كثيرون يجربون الموت والعودة الى الحياة ـ وهذا قدرنا ـ مرة واحدة في هذه المرحلة وخلال حياتهم كلها. تصبح طفولتهم فارغة وتبدأ بالانهيار تدريجياً. كل ما يحبونه يبدأ بالابتعاد عنهم وبغتة يحسون انهم محاطون بالوحشة والبرد الفاني في هذا الكون. وكثيرون جداً يُحْتجزُون إلى الأبد في هذا الطريق المسدود ويظلون طوال حياتهم الباقية متعلقين بشكل مؤلم بماضيهم الراسخ، بحلمهم عن الفردوس المفقود ـ والذي هو أسوأ الأحلام وأكثرها قسوة

ولكن لأعد إلى قصتي. ان الأحاسيس والأحلام المصورة التي أعلنت نهاية طفولتي أكثر من أن تُحكى بالتفصيل. الأمر الهام هو ان «العالم المعتم» أو «العالم الآخر» قد عاد الى الظهور. وما كان عليه فرانز كرومر ذات يوم صار الآن جزءاً مني.

لقد مرت سنوات عديدة على حادثتي مع كرومر. والوقت العصيب الذي كان معبأً بالذنب قد صار ماضياً بعيداً وصار يبدو مثل كابوس قصير تلاشى بسرعة. خرج فرانز كرومر من حياتي منذ زمن بعيد، وقلما لاحظت أو انتبهت لمسألة الالتقاء به في الشارع. أما الشخص الهام الآخر في مأساتي الصغيرة، ماكس دميان، فلم يخرج من حياتي، أبداً، خروجاً كاملاً على الرغم من انه، ولفترة طويلة، كان يبقى في الهوامش البعيدة مرئياً ولكن خارج نطاق التأثير. وبشكل تدريجي عاد الى الاقتراب وهو يشع، مرة أخرى، بالقوة والتأثير.

إنني أحـاول أن أرى ما يمكن ان أتذكره من دميان في ذلك الحين. من المحتمل تماماً انني لم أكلمه مرة واحدة طوال عام كامل وربما أكثر. كنت أتجنبه. وهو لم يكن يفرض نفسه عليَّ بأي شكل. والمرات القليلة التي كنا نتواجه فيها كان يكتفي بأن يهـز رأسـه لي. حتى أنه كان يبدو أحياناً وكأن صداقته مشوبة بالهزء وبالتعامل الساخر ـ ولكن ربما كنت أتخيل ذلك. لقد نسي كل منا تلك التجربة التي مررنا بها معاً والتأثير الغريب الذي مارسه عليّ في ذلك الحين.

أستطيع أن أستحضر في ذاكرتي ما كان يبدو عليه. وإذ أحاول أن أتذكر الآن أستطيع أن أرى أنه لم يعد بعيداً عني وأنني قد بدأت انتبه إليه. أستطيع أن أراه. وهو في طريقه الى المدرسة، وحده أو مع مجموعة من التلاميذ الكبار، وأراه غريباً، وحيداً، وصامتاً وهو يتجول بينهم مثل كوكب منفصل محاط بهالة خاصة به ويشكل ناموساً بحد ذاته. لم يكن يحبه أحد، ولم يكن أحد متآلفاً معه ، باستثناء أمه. وحتى هذه العلاقة لم تكن تبدو علاقة طفل بل علاقة شخص ناضج. وكلما وجد الأساتذة الأمر ممكناً تركوه لنفسه. كان تلميذاً متفوقاً إلا أنه لم يكن يبذل أي مجهود لإرضاء أحد. وبين حين وآخر كنا نسمع عن كلمة قالها، أو عن تعليق ساخر أطلقه أو عن رد أشيع انه رد به على أستاذ وكلها ـ كنماذج من الإثارة والسخرية الجارحة ـ لم تكن تترك لديه ما يُرغب به.

وفيما أنا أغلق عينيَّ لأتذكر أستطيع أن أرى صورته تبرز: أين كان ذلك؟

نعم. تذكرت. في الزقاق المجاور لبيتنا. رأيته ذات يوم واقفاً هناك وبيده دفتر وهو يرسم تخطيطات سريعة. كان يرسم الشعار الصغير ذا الطائر الموجود فوق مدخل بيتنا وفيما كنت أقف بالنافذة وراء الستارة وأراقبه، دهشت من وجهه البارد وبشرته الرقيقة وهو يدير وجهه نحو الشعار. كان وجه رجل، وجه عالم أو فنان، وجهاً سامياً فيه عزيمة، مشرقاً وهادئاً بشكل غريب وبعينين ذكيتين.

وأستطيع أن أراه في مناسبة أخرى. كان ذلك بعد عدة أسابيع، وفي الشارع أيضاً. كان كل منا متجهاً الى بيته وعائداً من المدرسة وكنا قد اجتمعنا لنتفرج على حصان سقط على الأرض. كان واقعاً أمام عربة مزارع وما زال عنانه مربوطاً بعريش العربة، وهو ينخر متألماً من منخريه المتوسعين وينزف من جرح غير مرئي نزيفاً لوث التراب الأبيض على جانب الطريق. وعندما حولت وجهي بقرف رأيت وجه دميان. لم يكن قد دفع نفسه الى الأمام كثيراً بل كان يقف وراء الجميع باسترخاء وبأناقته المعهودة. بدت عيناه متركزتين على رأس الحصان؛ ومرة أخرى بدا فيهما ذلك الاستغراق العميق الهادىء المهتم دون عاطفية. لم أستطع منع نفسي من النظر اليه لفترة، وعندها شعرت بإحساس صغير وغريب. رأيت وجه دميان ولم ألاحظ، فقط، أنه لم يكن وجه ولد بل وجه رجل، بل انني شعرت، ورأيت، أنه ليس، أيضاً، وجه رجل. ان فيه شيئاً ما أنثوياً. لكن الوجه صدمني في تلك اللحظة من حيث أنه ليس وجه ذكر أو طفل، ليس وجه عجوز أو شاب، بل هو وجه يبلغ عمره ألف عام، وجه لازمنيّ يحمل ندوب تاريخ مختلف تماماً عما نعرف. الحيوانات يمكن ان تبدو هكذا أو الأشجار أو الكواكب ـ وأنا لا أعرف أياً من هذه الأشياء بشكل واع ولذا فأنا لا أحس بدقة بما أقوله عنه، الآن وقد كبرت، بل هو شيء من هذا القبيل. ربما كان وسيماً، وربما كنت قد أحببته، وربما كان مقرفاً. ليس في وسعي التأكد من هذا أيضاً. كل ما رأيته هو أنه كان مختلفاً عنا. كان أشبه بالحيوان أو بالروح أو بالصورة. كان مختلفاً، مختلفاً عنا بشكل لا يمكن تصوره.

ان ذاكرتي تخونني ولا أستطيع الجزم في ما إذا كان ما وصفته لم يأت إلى

حد ما من انطباعات جاءت فيما بعد.

مرت عدة سنوات حتى التقيت به لقاء آخر عن قرب. لم يكن دميان قد حظي بالتثبيت الديني في الكنيسة مع الجماعة التي في عمره، كما جرت العادة، وهذا، أيضاً، جعله هدفاً لإشاعات مغرضة. كان الأولاد في المدرسة يكررون القصة القديمة عن كونه يهودياً أو ربما وثنياً؛ بينما كان آخرون واثقين أنه، وأمه، كانا ملحدين أو أنهما منتميان الى مذهب خرافي سيء السمعة. وإضافة الى ذلك أتذكر، أيضاً، أنني سمعت عن الشك في كونه عشيقاً لأمه. ومن المحتمل جداً أن يكون قد تربى دون أية تعاليم دينية ولكن هذا أصبح الآن مصدر شؤم على مستقبله. ولكن أمه قررت أن تدفع به لأخذ دروس التثبيت الديني على الرغم من تأخره سنتين عمن هم في عمره. وهكذا حدث أنه جاء إلى الصف الديني ذاته الذي كنت فيه.

مرت فترة وأنا أتجنبه تجنباً تاماً. لم أكن أحب أن أشاركه في شيء. لقد كان محاطاً بخرافات وأسرار كثيرة، لكن ما أربكني أكثر من غيره شعوري بأنني مدين له، ذلك الشعور الذي لم يفارقني منذ حكاية كرومر. إن لدي، الآن، ما يكفيني من المشكلات مع أسراري؛ ذلك أن الدروس الدينية تواقتت مع تنوري الحاسم حول مسألة الجنس. وعلى الرغم من نواياي الطيبة كلها فإن اهتمامي بالشؤون الدينية قد تقلص الى حد كبير. وما كان يناقشه أمامنا القس كان من عالم بعيد وتقي خاص به، ولا شك أن هذه الأمور كانت جميلة وقيمة لكنها لا يمكن أن تكون بنت وقتها وذات إثارة لتلك الأمور التي كنت أفكر فيها.

وبقدر ما جعلتني هذه الحالة لا مبالياً بدروس الدين، فإنها جعلتني أعود الى الانشغال بماكس دميان. بدا كأن هناك رابطة بيننا، رابطة علي أن أتقصاها قدر الإمكان. وبمقدار ما أستطيع أن أتذكر فإن الرابطة قد بدأت صباح أحد الأيام وكان الوقت مبكراً مما يستدعي إشعال النور في غرفة الصف. كان أستاذ الإنجيل قد وصل الى قصة قابيل وهابيل. كنت نعساناً استمع بنصف أذن. وحين بدأ القس

يشرح بصوت مرتفع وملح عن علاقة قابيل أحسست، بما يشبه اللمسة، بنوع من الانـذار؛ وحين التفت رأيت وجـه دميان وقـد التفتْ إليّ نصف التفاتة من أحد المقاعد الأمامية بعينين لامعتين تعبران عن الاحتقار بمقدار ما تعبران عن التفكير العميق مما لا يمكن الجزم به. تطلع اليّ لوهلة وسرعان ما صرت اصغي باهتمام لكلمات القس فسمعته يتحدث عن قابيل وعلامته؛ وفي أعماقي شعرت بالمعرفة التي كانت مختلفة عما يعلمنا إياه، وبأن الانسان يستطيع ان ينظر إلى الموضوع نظرة مختلفة، وان رأيه ليس فوق النقد.

هذه اللحظة، بالذات، أعادت تأسيس الرابطة بيني وبين دميان، وكم كان الأمـر غريباً ـ لم أكد أنتبه إلى التقارب الروحي الخاص حتى رأيته مترجماً إلى اقتراب مادي. ولم تكن لديّ فكرة عما اذا كان قادراً على ترتيب الأمر بهذه الطريقة أم انه حدث بمحض الصدفة ـ كنت ما أزال في ذلك الحين أؤمن بالصدفة والحظ ـ ولكن بعد أيام قليلة بدل دميان المقاعد في درس الدين وجاء ليجلس أمامي (ما أزال أذكر بدقة: في جو الملجأ الردىء للصف المزدحم كنت أحب رائحة الصابون الطازج التي تنبعث من قذاله) وبعد عدة أيام بدل المقاعد مرة أخرى وجلس هذه المرة الى جانبي وظل في هذا المكان طوال الشتاء والربيع

تغيرت ساعات الصباح تغيراً كاملاً لم تعد تنعسني أو تثير مللي بل انني صرت انتظرها أحياناً كنت، وإياه، نصغي للقس بتركيز شديد، ونظرة من جاري كانت كافية للفت انتباهي الى قصة متميزة، أو إلى قول غير عادي ونظرة أخرى منه، نظرة خاصة، تجعلني انتقادياً ومتشككاً.

لكننا، في أغلب الأحيان، لم نكن ننتبه. لم يكن دميان سيء السلوك تجاه المعلم أو زملائه. ولم أره مرة واحدة ينخرط في المزاح المألوف ولم أسمعه مرة يقهقـه أو يثرثـر أثناء سير الدرس. ولم يتعرض أبداً لتأنيب معلم. بهدوء شديد وبالإشارات والتلميحات بديلاً عن الهمس سعى لأن يشركني في نشاطاته، وكانت غريبة

مثلاً: كان يخبرني عن أي التلاميذ يثير اهتمامه وكيف يدرسهم. بعضهم كانت لديه معرفة دقيقة عنه. كان يقول لي قبل بدء الدرس: «حين أشير بإبهامي سيلتفت فلان ويتطلع الينا أو سيحك نقرته». وخلال هذه الفترة وبعد ان أكون قد نسيت الموضوع تماماً كان ماكس، بغتة، يشير بإبهامه إشارة مميزة. أتطلع بسرعة إلى التلميذ المعني وفي كل مرة كنت أراه يفعل الحركة المرغوبة وكأنه دمية مربوطة بخيط. وكنت أرجو ماكس ان يجرب ذلك على المعلم لكنه كان يرفض. مرة واحدة فقط جئت فيها الى الصف ولم أكن قد درست جيداً؛ قلت له إنني أرجو أن لا يستدعيني القس هذا اليوم. وساعدني. بحث القس عن تلميذ يستظهر المقطع المخصص للحفظ الشفهي ودارت عيناه في القاعة ثم استقرتا على وجهي المذنب. واقترب مني ببطء وإصبعه موجهة إليّ وبدأ اسمي يتشكل على شفتيه - وبغتة شرد وبدا عليه القلق وشد قبة قميصه وتوجه الى دميان الذي كان يتطلع، مباشرة إلى عينيه وبدا عليه وكأنه سيسأله عن شيء ما. لكنه ابتعد مجدداً وتنحنح عدة مرات ثم استدعى واحداً آخر.

وعلى الرغم من أن تلك الالاعيب كانت تسليني الا انني بدأت ألاحظ، بالتدريج، ان صديقي كثيراً ما كان يلعب اللعبة ذاتها معي. فيحدث أنني في طريقي الى المدرسة أحس بغتة ان دميان يسير خلفي وعلى مقربة وحين التفت اراه فعلاً.

وسألته ذات مرة هل تستطيع فعلياً ان تجعل شخصاً ما يفكر فيما تريده أن يفكر فيه.

أجاب فوراً باسلوبه الهادىء الواثق الناضج لا لا أستطيع أن أفعل ذلك. أنت تعرف اننا لا نمتلك الارادة الحرة حتى والقس يدفعنا للايمان بذلك. الانسان لا يستطيع ان يفكر فيما يريد وأنا لا أستطيع أن أجعله يفكر فيما أريد لكن في وسع المرء أن يدرس انساناً آخر بدقة وعندها يستطيع، غالباً، أن يعرف، بشكل دقيق تقريباً، ما يفكر فيه وما يشعر به وبعدها قد يستطيع ان يعرف ما الذي سيقوم

به في اللحظة التالية. والمسألة بسيطة جداً لكن الناس لا يعرفونها لا شك أنك تحتاج الى التدريب. فمثلاً هناك نوع من الفراشات، عث الليل، تكون فيه الإناث أقل بكثير من الذكور. والعث يتوالد تماماً مثل بقية الحيوانات. الذكر يخصب الأنثى والأنثى تبيض. فإذا أخذت أنثى العث - كثير من علماء الطبيعة جربوا هذه التجربة - فان الذكور ستأتي لزيارة هذه الانثى ليلاً وسيأتون من بُعد ساعات، عن بعد ساعات. فكر في الأمر. عن بعد عدة أميال تحس هذه الذكور كلها بالأنثى الوحيدة في المنطقة. ويبحث المرء عن تفسير لهذه الظاهرة لكن تفسيرها ليس سهلاً لا بد ان تفترض أن لديها حاسة شم شبيهة بحاسة كلب الصيد الذي يستطيع ان يكتشف ويلاحق رائحة تبدو وكأنها عصية على أن يُحسَّ بها. أترى؟ الطبيعة ملأى بأمور لا يمكن تفسيرها. ولكن رأيي هو انه لو كانت إناث العث متوفرة وبعدد الذكور لما كان للذكور هذه الحاسة المتطورة للشم، لقد حصل الذكور عليها لأن عليهم ان يدربوا أنفسهم على الحصول عليها. ولو ان انساناً يركز قوة إرادته كلها على غاية معينة فإنه لا بد ان يحققها. هذا كل ما في الأمر. وهذا، أيضاً، يجيب على سؤالك. تفحص إنساناً عن قرب وبدقة وستعرف عنه أكثر مما يعرف عن نفسه.

كان على رأس لساني تعبير «قراءة الأفكار» وأن أذكره بحادثة كرومر التي صارت بعيدة في الماضي، لكن هذا، أيضاً، كان غريباً في علاقتنا. لا هو، ولا أنا، لمّح إلى حقيقة أنه قبل عدة سنوات تدخل بجدية صارمة في حياتي. كان الأمر يتم وكأنه لم يحدث، قط، شيء بيننا، أو كأن كلاً منا اعتبر أن الآخر قد نسي الموضوع. وفي مناسبة، أو مناسبتين، حدث أن لمحنا كرومر في أحد الشوارع، لكن أحداً منا لم ينظر الى الآخر ولم يقل أي منا كلمة متعلقة به.

سألته: ما هذا الحديث، كله، عن الارادة؟ فمن جهة تقول إن إرادتنا ليست حرة ثم تعود الى القول إننا لا نحتاج الا الى تركيز ارادتنا بقوة على هدف ما لكي نحققه. ليس بينهما ترابط. فحين لا أكون سيد إرادتي فإنني لست في الوضع الذي يمكنني من توجيهها كما أشاء.

ربت على ظهري كما كان يفعل دائماً عندما يسره شيء مني   وقال ضاحكاً: جميل أنك سألت. يجب أن تسأل دائماً وان تكون لديك شكوك. ولكن المسألة في غاية البساطة   فمثلاً لو انه كان على العث ان يركز إرادته على الطيران إلى أحد النجـوم، أو على هدف مشابه صعب التحقق لما نجح في ذلك. فقط ـ هو لن يحاول مبدئياً   ان العث يحصر بحثه فيما لـه معنى وقيمة بالنسبة له، وفيما يحتـاج إليه وفيما لا غنـى له عنه في حياته   وبهذه الطريقة يحقق العث ما لا يُصدَّق. إنه يطور حاسة سادسة سحرية ليست موجودة لدى أي مخلوق آخر. نحن لدينا مجال أوسع، تنوع أكبر في الخيار، ومصالح أشمل من مصالح الحيوان. ولكن نحن، أيضاً، محدَّدون بمحيط ضيق نسبياً لا نستطيع تجاوزه. فلو تصورت انني كنت أريد، مهما كانت الظروف، أن أصل إلى القطب الشمالي، فمن أجل تحقيق ذلك يجب ان أرغب في الأمر بالقوة الكافية التي تجعل كياني كله محكوماً به. وما إن يصبح الأمر على هذا النحو، ما ان تحاول تحقيق شيء تلقيت أمراً بتحقيقه من داخلك؛ فإنك تصبح قادراً على تحقيقه؛ وعندها تستطيع ان تقيد إرادتك به مثل جواد مطيع. ولكن لو انني قررت أن أرغب في أن يكف القس عن لبس نظارته فان هذا بلا جدوى. هذا يعني انني أحول الأمر الى لعبة. ولكن في ذلك الحين عندما صممت على أن انتقل من مقعدي في الصف الأمامي لم يكن الأمر صعباً على الإطـلاق. بغتـة وجد شخص يسبق اسمه اسمي في الترتيب الأبجدي، وكان، بسبب المرض، متغيباً حتى ذلك الحين وبما انه على أحدنا ان يفسح له المجال فقد كان ذلك أنا بالطبع، لكن إرادتي كانت متهيئة لاقتناص الفرصة فوراً.

قلت   نعم. وأنا نفسي أحسست بالأفضلية في ذلك الحين. فمنذ اللحظة التي بدأ كل منا يثير اهتمام الآخر بدأت تنتقل أقرب فأقرب من مكاني. ولكن كيف حدث ذلك؟ لم تجلس قربي مباشرة. في البداية جلست لفترة في المقعد الذي هو أمامي. فكيف دبرت الانتقال الثاني؟

ـ كان الأمر على هذا النحو: لم أكن أعرف، بنفسي، أين سأجلس لكنني كنت راغباً في تغيير مقعدي في الصف الأمامي. كنت أعرف، فقط، انني أريد أن

أجلس إلى الخلف. كانت رغبتي أن آتي وأجلس الى جانبك لكنني لم أكن قد أدركت هذه الرغبة بعد. وفي الوقت ذاته توافقت رغبتك مع رغبتي ومساعدتي. عندما وجدت نفسي جالساً أمامك أدركت ان رغبتي لم تتحقق بكاملها وان هدفي هو ان أجلس إلى جانبك.

- ولكن في ذلك الحين لم يمرض أحد ولم يعد أحد من مرضه ولم يلتحق بالصف تلميذ جديد.

- صحيح، ولكن في ذلك الحين فعلت ببساطة ما كنت اريد وجلست الى جانبك. والولد الذي تبادلت معه دهش الى حد ما لكنه تركني أفعل ما أريد، والقس، أيضاً، لاحظ حدوث تغيير ما. وحتى الآن هناك ما يزعجه في سره كلما اراد ان يتعامل معي فهو يعرف ان اسمي دميان وان هناك خطأ ما حين أجلس أنا، بحرف دي، الى جانب حرف إس. لكن هذا لم يخترق وعيه لأن ارادتي تعارضه ولأنني، دائماً، أضع العراقيل في طريقه. يظل يلاحظ ان هناك خطأ ما. ثم يتطلع اليّ ويحاول ان يحل اللغز. لكن لديّ حلاً بسيطاً لهذا الأمر. في كل مرة تلتقي عيناه بعنيّ أحدق فيه حتى يخفض بصره. قليلون من يستطيعون ان يصمدوا لهذه الحالة طويلاً. جميعهم يحسون بالارتباك. ان كنت تريد شيئاً من شخص ما وحدقت بعينيك إليه بثبات ولم ينزعج بسهولة فكف عن المحاولة. ليس لك نصيب فيه ابداً لكن هذا نادرا جداً. عملياً أعرف شخصاً واحداً فقط لم تساعدني معه هذه الطريقة.

- ومن هو؟ سألته بسرعة.

تطلع اليّ بعينين ضيقتين كما يفعل عندما يغرق في التفكير. ثم حول نظره ولم يجب. وعلى الرغم من ان فضولي كان شديداً الا انني لم استطع ان اكرر السؤال.

اعتقد انه كان يقصد أمه، يقال ان علاقته بها قوية جداً. الا انه لم يذكر

اسمها أبداً ولم يأخذني مرة واحدة معه الى البيت. ولا اكاد اعرف شكل أمه.

كنت أحاول احياناً ان أقلد دميان وأن أركز إرادتي بشدة على شيء ما أكون واثقاً من انني سأحققه. كانت هناك رغبات تبدو لي ملحة. ولكن لم يحدث شيء. لم انجح. ولم أستطع أن أحادث ديمان بالأمر. إذ انني لم أكن راغباً في الكشف عن رغباتي أمامه. وهو، بدوره، لم يكن يسألني.

وفي هذه الأثناء بدأت التشققات تظهر في إيماني الديني. لكن تفكيري، الذي كان، بالتأكيد، متأثراً جداً بدميان، كان مختلفاً اختلافاً كبيراً عن تفكير بعض زملائي التلاميذ الذين كانوا يتباهون بانعدام الإيمان الكامل. أحياناً يقولون إنه مضحك وإنه لا يليق بإنسان أن يؤمن بالله، وإن قصصاً من نوع الثالوث وولادة العذراء قصص غير معقولة ومخجلة. وإنه لمن المخزي أننا كنا ما نزال، في عصرنا هذا، نتغذى على هراء من هذا النوع، ولم أكن أشاركهم هذه الآراء. وعلى الرغم من انه كانت لديّ شكوكي حول بعض الأمور. إلا أنني كنت أعرف، منذ الطفولة، حقيقة الحياة التقية، لأن والديّ كانا يعيشانها. وكنت أعرف أيضاً ان هذه الحياة ليست عديمة القيمة وليست منافقة. على العكس من ذلك كنت ما أزال في أعماق رهبة الدين. لكن دميان عودني ان أهتم بالقصص الدينية وأن أفسرها وأفسر العقائد الجامدة بحرية وبشكل فردي وحتى بشكل لاهٍ، ومع استخدام المخيلة. ودائماً كنت أستمد متعة من التفسيرات التي يطرحها. وكان بعضها ـ مثل قصة قابيل مثلاً ـ أكثر مما أتحمل بالطبع. وذات مرة، في أحد دروس الدين، فاجأني وأربكني برأي ربما كان متطرفاً في جرأته. كان المعلم يتحدث عن الجلجلة وكانت الرواية الانجيلية عن معاناة المخلص وموته قد أثرت فيّ تأثيراً عميقاً منذ الطفولة. وأحياناً، حين كنت صغيراً، في الجمعة الحزينة، مثلاً، كنت أتأثر بشدة من قراءة والديّ لآلام المسيح وكنت أود أن أعيش في هذا العالم المحزن ولكن الجميل، والشجي الشاحب ولكن الحي بقوة، في الجثمانية* وعلى الجلجلة. وحين سمعت «معاناة

* الحديقة التي أُعتقل فيها المسيح خارج القدس ـ المترجم.

القديس ماثيو» لباخ ملأني الوهج القاتم العنيف للمعاناة في هذا العالم الغامض باحســاس راعش صوفي. وحتى اليوم أجــد في هذه المـوسيقى وفي «اكتـوس تراجيكوس» جوهر الشعر كله.

في نهاية ذلك الدرس قال لي دميان وهو غارق في التفكير: «هناك شيء لا أحبه في هذه القصة. لمَ لاتقرأها مرة أخرى وتخضعها للتمحيص؟فيها شيء لا يبدو صحيحاً. أعني الجانب المتعلق باللّصين. الصلبان الثلاثة المتجاورة على التلة مؤثرة بالتأكيد. ثم يأتي ذلك البحث العاطفي الصغير المتعلق باللص الطيب. في البدء كان وغداً بكل معنى الكلمة، وقد ارتكب تلك الاعمال الشائنة كلها، وما يعلم الله وحده غيرها، ثم تتدفق دموعه ويقيم ذلك الحفل الباكي حول تحسين النفس والندم. ما معنى التوبة حين تكون على بعد خطوتين من القبر؟ أنا أسألك. مرة أخرى أقول ليست هذه الا خرافة من صنع القسس، محلّاة ومزورة، ومحسَّنة بالعاطفية ومعطاة خلفية تهذيبية. ولو كان عليك ان تختار صديقاً من بين اللصين، أو أن تقرر أيهما تستطيع ان تثق به، فإنك بالتأكيد لن تختار ذلك التائب المتباكي. أبداً. تختار الآخر. رجل ذو أخلاق. انه لن يرفع صوتاً من أجل هذه «الهداية» التي هي. بالنسبة لرجل في وضعه، ليست اكثر من كلام جميل. انه يتبع مصيره الى نهايته المحددة ولا يجبن ويتنكر للشيطان الذي ساعده وأغراه حتى ذلك الحين. له شخصيتـه. والـذين لهم شخصية يميلون الى اتخـاذ المـواقف البغيضـة في القصص التوراتية. ربما كان من احفاد قابيل. ألا توافقني؟

ارتعبت. حتى الآن كنت أحس بألفـة شديدة مع قصة الصلب. أما الآن فإنني أرى، وللمرة الأولى، بكم من انعدام الشخصية ومن ضعف المخيلة كنت استمـع اليها وأقرأها. ولكن رأي دميان الجديد بدا لي مشؤوماً وغامضاً، ويهدد بنسف معتقـداتي في أولئـك الـذين كنت أحس أن عليَّ ان أصر على وجودهم المستمر. لا يستطيع المرء أن يستخف بكل شيء وخاصة في الأمور المقدسة.

وكالعادة لاحظ مقاومتي حتى قبل أن أقول شيئاً.

قال بلهجة محايدة وفيها تنازل: «أعرف. إنها القصة القديمة ذاتها: لا تنظر الى هذه القصص بجدية! لكن عليّ أن أقول لك شيئاً ما. هذه إحدى النقاط التي تكشف عن فقر هذا الدين بشكل دقيق. والمسألة هي ان رب العهدين القديم والجديد لا بد ان يكون شخصية متميزة واستثنائية، ولكن ليس بما يوحي انه يمثله. الله هو كل ما هو طيب ونبيل وأبوي وجميل وسام ورقيق - صحيح! ولكن العالم يحتوي على شيء آخر إضافة الى ذلك كل ما تبقى يُنسب الى الشيطان؛ هذا الجزء من الدنيا كله، هذا النصف كله يخمد ويقمع. بالطريقة ذاتها تماماً يمتدحون الله كأب للحياة كلها لكنهم، ببساطة، يرفضون ان يقولوا كلمة واحدة عن حياتنا الجنسية التي يقوم عليها كل شيء، ويصفونها بالخطيئة كلما أمكنهم ذلك، على اساس انها من عمل الشيطان. ليس لدي مانع، أبداً، من عبادة هذا الرب. معاذ الله ولكن ما أقصده هو ان علينا أن نعتبر كل شيء مقدساً، العالم كله، وليس ذلك النصف المفصول بشكل تعسفي ولهذا فإلى جانب صلاتنا الدينية يجب ان نقدم صلاة للشيطان. أظن ان هذا معقول. وإلا فان عليك ان تخلق لنفسك رباً يحتوي على الشيطان أيضاً ولا تحتاج، أمامه، إلى أن تغلق عينيك عندما تحدث أكثر الأمور طبيعية في الدنيا».

لم يكن من المعهود به ان ينفعل ويحتد. لكنه سرعان ما ابتسم وتوقف عن تحريضه.

إلا أن كلماته لمست، مباشرة، السر الاجمالي لبلوغي، ذلك السر لذي كنت أحمله معي في كل ساعة من ساعات النهار والليل والذي لم أنبس بكلمة عنه لأحد. وما قاله دميان عن الله والشيطان، عن الالوهية الرسمية، والشيطان المضطهد، توافق تماماً مع أفكاري، مع أسطورتي الخاصة بي، ومفهومي الخاص عن العالم المقسم الى نصفين - عالم النور، وعالم الظلام. وإدراكي لمسألة أن مشكلتي من النوع الذي يثير اهتمام الناس كلهم، مشكلة العيش والتفكير، هو ما هيمن عليّ بغتة مما جعل الخوف والاحترام يسيطران عليّ حالما رأيت وشعرت

كيف ان حياتي الشخصية وآرائي كانت غارقة في التيار الأبدي للأفكار العظيمة. وعلى الرغم من ان ادراكي هذا قد منحني الثبات والرضا إلا أنه لم يكن في حقيقته مفرحاً. لقد كان صعباً ويتمتع بمذاق حاد لأنه يتضمن في طياته المسؤولية وعدم السماح لي بعد ذلك بأن أظل ولداً. كان يعني وقوفي على قدمي.

وكشفت السر العميق لأول مرة في حياتي فأخبرت صديقي عن مفهومي لـ«العالمين». ورأى فوراً ان مشاعري العميقة تتطابق مع مشاعره. لكنه لم يكن من النوع الذي يغتنم فرصة كهذه. استمع اليّ باهتمام أكبر مما سبق له ان استمع به اليّ، وحدق الى عيني حتى اضطرني لتحويل نظري. فقد لمحت مرة أخرى، في تحديقه تلك النظرة الغريبة الشبيهة بنظرة الحيوان والمعبرة عن اللازمنية وعن العمر الذي لا يمكن تصوره.

قال متمسكاً بالصبر: سنتحدث في هذا مرة أخرى. أرى ان أفكارك أعمق من ان تستطيع، أنت نفسك، ان تعبر عنها. وطالما ان الأمر هكذا فأنت تعرف أنك لم يسبق لك أن عشت كما كنت تفكر. وهذا ليس حسناً. والأفكار التي نعيشها هي وحدها التي لها قيمة، انت تعرف الآن ان عالمك المعترف به ليس الا نصف العالم وكنت تحاول ان تعبر عن النصف الثاني بالطريقة ذاتها التي يعبر بها المعلمون والقسس. ولن تنجح في ذلك. وما من احد ينجح في ذلك طالما لما انه قد بدأ يفكر.

ولمس هذا الكلام صميم قلبي. وقلت بما يشبه الصراخ: «لكن هناك أشياء بشعة وممنوعة في العالم. لا تستطيع ان تنكر ذلك. انها ممنوعة ويجب ان نهجرها. أعرف، بالطبع، أن الجرائم وكافة انواع المعاصي موجودة في العالم. ولكن هل يجب ان أصبح مجرماً لمجرد انها أمور موجودة؟

قال ماكس مهدئاً لن نستطيع ان نعثر على الأجوبة كلها اليوم. بالطبع ليس مطلوباً ان تقتل شخصاً آخر أو أن تغتصب فتاة. لكنك لم تصل الى حيث تستطيع ان تفهم المعنى الحقيقي لـ«المسموح» و«الممنوع»، لقد تحسست جزءاً من

الحقيقـة. وسـوف تشعر بالجزء الآخر أيضاً. ثق من ذلك. فمثلاً أنت منذ عام تصـارع رغبـة اقـوى من أية رغبـة أخـرى وهي تعتبر «ممنوعة»، لكن اليونانيين القدامى، وشعوباً أخرى عديدة، قد أعلوا من شأن هذه الرغبة وجعلوها مقدسة وكانوا يحتفلون بها في أعياد كبيرة. بمعنى آخر ما هو ممنوع ليس ممنوعاً أبدياً. بل هو أمر قابل للتغير. ان كل انسان يستطيع ان ينام مع امرأة حالما يذهب معها الى الكاهن ويتزوجها. لكن شعوباً اخرى تفعل ذلك بطرق مختلفة، وحتى في أيامنا هذه. ولهـذا فان على كل منا ان يكتشف بنفسه ما هو مسموح به وما هو ممنوع ـ ممنـوع عليه ان من الممكن لشخص ما ان لا يتجـاوز في حياته كلها قانوناً واحـداً، ومـع ذلك يظل سافلاً والعكس صحيح. عملياً هي مسألة قناعة فقط. والذين هم أكثر كسلاً واسترخاء من ان يفكروا لأنفسهم وان يصبحوا قضاة أنفسهم هؤلاء هم الذين يطيعون القوانين. وهناك آخرون يحسون بقوانينهم الخاصة في داخلهم. وهناك أمور يعتبرونها ممنوعة على الرغم من ان أي إنسان شريف يمكن ان يقوم بها في أي يوم وفي كل وقت. وأشياء أخرى مسموحة لهم لكنها في نظرهم محتقرة. على كل إنسان أن يقف على قدميه.

وبغتة بدا عليه الأسف لأنه تكلم كثيراً فصمت. وكنت أستطيع ان أحدس بما كان يفكر فيه في لحظات كهذه. وعلى الرغم من انه قد طرح أفكاره بأسلوب لطيف ومحايد الا انه لم يعد قادراً على الحديث لمجرد الحديث كا سبق له ان قال لي ذات مرة. وفي حالتي كان يحس لدي، اضافة الى الاهتمام الجدي، بكثير من اللعب؛ المتعـة المجـردة من خلال الثرثرة الذكية او اي شيء من هذا القبيل؛ باختصار عدم الالتزام التام.

وبعد أن قرأت الكلمتين اللتين كتبتهما لتوي ـ الالتزام التام ـ قفز الى ذهني مشهد من اكثر المشاهد ايحائية وتعبيراً مما سبق لي ان عشت مع ماكس دميان في تلك الأيام التي كنت فيها ما أزال نصف ولد.

كان اليوم الـذي نأخـذ فيه درس الدين يقترب. وكان موضوع دروسنا هو

«العشاء الأخير». ولهذا أهمية خاصة بالنسبة للقس وقد عانى الكثير وهو يحاول شرحه لنا وكان في وسع المرء ان يحس بالقداسة في تلك الساعات الأخيرة من التدريس. ومن بين الأزمنة كلها فقد كان هذا هو الوقت الذي كانت فيه أفكاري أبعد ما تكون عن الدرس. كانت متركزة على صديقي. وفيما كنت أنتظر التثبيت الديني، الأمر الذي شُرِح لنا كتقبل قدسي في مجتمع الكنيسة، لم أستطع منع نفسي من التفكير في ان قيمة هذا الاجراء الديني، بالنسبة لي، لا تكمن في ما تعلمته بل في تقريبي من ماكس دميان وتأثيره. ولم أكن جاهزاً لأن أُقبل في الكنيسة بل في شيء مختلف عن ذلك كلياً ـ في منهج تفكير وشخصية. لا بد أنه موجود في مكان ما على الأرض وقد اتخذت من ممثله أو رسوله صديقاً.

وحاولت أن أكبح هذه الفكرة ـ فقد كنت تواقاً للانخراط في مراسم التثبيت الديني وبوقار خاص، ولم يبد ان هذا الوقار يتلاءم مع افكاري الجديدة. ولكن مهما كان ما كنت أفعله فقد كانت الفكرة حاضرة وصارت مرتبطة تدريجية، وبشكل راسخ بالمراسم القادمة. وكنت مستعداً لأن أمثل فيها بشكل مختلف عن الآخرين لأن ذلك سيمثل قبولي في عالم الفكر، كما سبق ان عرفته من دميان.

وفي يوم من تلك الأيام صدف ان كنا نتناقش قبل الدخول الى الدرس. وكان صديقي مطبق الشفتين وقد بدا عليه انه لا يستمتع بحديثي، الذي ربما كان حديث انسان معتد بنفسه وناضج قبل أوانه.

قال بجدية غير معهودة: «إننا نتكلم كثيراً. الحديث البارع عديم القيمة تماماً. كل ما نفعله في هذا السياق هو ان تخسر نفسك. وخسارة الذات خطيئة، على المرء ان يكون قادراً على التسلل الى داخل نفسه تماما مثل السلحفاة.

ثم دخلنا الصف. بدأ الدرس وبذلت جهدي لكي أنتبه. ولم يشوشني دميان. بعد قليل بدأت أحس بشيء غريب من الجهة التي كان يجلس فيها، فراغ او برودة أو شيء من هذا القبيل، وكأن المقعد المجاور لي قد أصبح خالياً بشكل مفاجىء. وحين طغى عليّ هذا الشعور التفت لأتطلع.

ورأيت صديقي جالساً بقامة منتصبة، وكتفاه مرتدتان إلى الخلف كعادته. الا انه ظل يبدو لي مختلفاً وظل شيء ما ينبعث منه، شيء ما يحيط به وانا لا اعرفه. خيل لي في البدء ان عينيه مغلقتان لكنني رأيت انهما مفتوحتان. الا انهما لم تكون مركزتين على شيء محدد، كانت تطليعة لا ترى شيئاً - بدتا محولتين وكأنهما تنظران الى الداخل او الى البعيد البعيد. كان جالساً بلا حراك، ولم يكن يبدو عليه حتى انه يتنفس؛ كما لو أن فمه منحوت من الخشب أو الحجر. كان وجهه شاحباً شحوباً متسقاً كشحوب الحجر. وشعره البني هو الجزء الوحيد فيه الذي كان يجعله قريباً من الأحياء. يداه ممدودتان أمامه على المقعد، ثابتتان وعديمتا الحياة كأنهما شيئان جامدان، كالحجارة أو الفاكهة، شاحبتان وثابتتان لكنهما ليستا من الاطراف بل كانتا جرابين قويين يخفيان حياة قوية مستترة.

ارتعشت لما رأيت. ميت. خطر لي ذلك وربما لفظت الكلمة بصوت مرتفع. كانت عيناي المأخوذتان مركزتين على وجهه، على هذا القناع الحجري الشاحب، وشعرت في اعماقي: هذا هو دميان الحقيقي حين كان يمشي الى جانبي أو يتحدث اليّ - كان ذلك نصفه فقط، شخصاً يؤدي، بين حين وآخر، دوراً، يكيف نفسه؛ شخصاً، من قبيل الكياسة وحدها، يفعل ما يفعله الآخرون. لكن دميان الحقيقي هو هذا. بدائي، حيوان، رخام، جميل، بارد، ميت لكنه، سراً، مليء بحياة خرافية. وحوله لا شيء الا هذا الخواء الساكن، هذا الأثير، الفراغ الكوكبي، الموت الموحش!

وشعرت انه قد غاص الآن بشكل نهائي داخل نفسه. وارتعشت. لم يسبق لي ان كنت وحيداً بهذا المقدار، لادور لي فيه ولا علاقة؛ فهو الآن عصي على المنال؛ انه الآن أكثر بعداً عني مما لو كان على اقصى جزيرة في العالم.

لم أستطع أن أدرك أن أحداً غيري لم يلاحظ ذلك. لا بد ان الجميع قد تطلعوا اليه ولا بد ان الجميع قد ارتعشوا. لكن أحداً لم ينتبه اليه. كان يجلس حيث هو مثل تمثال، ومتعالياً، كما خيل لي، مثل صنم! وحامت ذبابة على جبهته ثم مرت على انفه وفمه - ولم تتحرك فيه عضلة.

أين هو الآن؟ بم يفكر؟ بم يشعر؟ أهو في الجنة أم في الجحيم؟

لم أكن قادراً على توجيه السؤال اليه. في نهاية هذه الفترة، حين رأيته يعود الى الحياة ويتنفس، وعندما التقت نظرته بنظرتي عاد كما كان من قبل.

من أين جاء ؟ أين كان؟ بدا عليه أنه متعب. لم يعد وجهه شاحباً، وعادت يداه الى الحركة. لكن الشعر البني كان بلا بهاء. وكأنه بلا حياة.

خلال الأيام القليلة التالية بدأت أمارس في غرفة نومي تمريناً جديداً صرت أجلس في الكرسي بلا حراك وأثبت عيني أيضاً، وأظل ثابتاً تماماً لأرى إلى متى أستطيع البقاء على هذه الحالة وما الذي سأشعر به. لم أشعر إلا بالتعب وبأن جفني يدعوانني الى أن أحكهما.

بعد ذلك بفترة بسيطة تم تثبيتنا دينياً. وهو حادث لا يستدعي أية ذكريات هامة.

لقد تغير كل شيء الآن. كان عالم طفولتي يتكسر من حولي. وكان والداي ينظران اليّ بنوع من الارتباك. وصارت أخواتي غريبات عليّ. كان تحرر من الأوهام قد زين وثلّم مشاعري ومتعي المعهودة. الحديقة ينقصها الشذا والغابة تفقد جاذبيتها. وبدا العالم من حولي، كبيع التصفية لبضائع مستعملة من العام الماضي، باهتاً خالياً من أية فتنة. الكتب ركام من الورق والموسيقى صخب من الصرير. هكذا تتساقط الاوراق عن الشجرةفي الخريف، ، الشجرة التي لا تشعر بالمطر المتساقط على جوانبها ولا بالشمس او الصقيع ولا بالحياة المتسربة تدريجياً إلى داخلها. الشجرة لا تموت. انها تنتظر.

تقرر ان يتم إرسالي الى مدرسة داخلية في نهاية العطلة. للمرة الاولى سأعيش بعيداً عن البيت. أحياناً صارت أمي تتقرب مني بلطف خاص وكأنها تستبق الزمن معي لتوحي لي بالحب وبالشوق الى البيت، وبما احتفظ به في قلبي. وذهب دميان في رحلة. فبقيت وحيداً

٤ ـ بياتريس

مع نهاية العطل، ودون أن أرى صديقي، ذهبت الى (القديس. * رافقني والـداي وعهـدا بي إلى بيت داخلي للأولاد يديره أحد معلمي المدرسة الاعدادية. ولا بد ان الرعب كان سيشلّهما لو عرفا في أي عالم تركاني.

وظل السؤال قائماً: هل سأصبح في النهاية ابناً ممتازاً ومواطناً صالحاً أم ان طبيعتي متوجهة باتجاه مختلف كلياً عن ذلك؟ ان محاولتي لتحقيق السعادة في ظل البيت الأبوي قد طالت، وقد نجحت بين حين وآخر؛ إلا انها في النهاية فشلت تماماً.

الخواء الغريب والعزلة التي بدأت أشعر بها لأول مرة بعد تثبيتي دينياً (آه كم سيصبح أليفاً فيما بعد ذلك الجو السطحي الموحش!) لم تمر إلا ببطء شديد. كان وداعي للبيت مدهشاً في سهولته وأخجلني أنني لم أعد أشعر بالتوق إليه. بكت أخواتي دون سبب، وظلت عيناي جافتين، ودهشت من نفسي. لقد كنت دائماً ولداً عاطفياً وطيباً في الأعماق. أما الآن فقد تغيرت تغيراً كاملاً. صرت أتصرف بلا مبالاة تامة تجاه العالم الخارجي. ولعدة أيام، بعد ذلك، هيمنت عليّ الأصوات الداخلية، التيارات الجوانية، التيارات المعتمة الممنوعة التي كانت تهدر تحت السطح. لقد ازداد طولي في نصف السنة الأخير عدة إنشات وصرت أمشي بهزالي

---

* المدرسة، وقد تركها المؤلف بلا اسم.

وأنا نصف منته في هذا العالم. وفقدت أية فتنة كان يمكن ان تكون لي وصرت أشعر انه لا يمكن لأحد ان يحبني وأنا ما أنا عليه. وكثيراً ما كنت أحس بالشوق لماكس دميان، لكنني وبالقدر ذاته كنت أكرهه وأتهمه بأنه السبب في إفقار حياتي الذي جعلني، في طريقه، مثل المرض الخبيث.

لم أكن محبوباً أو محترماً في المدرسة الداخلية. كنت أثار، في البدء، ثم يتم تجنبي ويُنظر إليّ كأنني متسلل أو كشاذ غير مرغوب فيه. ووافقت على هذا الدور لا بل رحت أبالغ فيه. وقسرت نفسي على عزلة ذاتية لا بد انها كانت تبدو للغرباء احتقاراً دائماً وذكورياً للعالم؛ بينما في الحقيقة كنت كثيراً ما أخضع سراً لنوبات منهكة من التشاؤم واليأس. أما ما يتعلق بالمدرسة فقد استطعت الاعتماد على المعلومات المتراكمة من صفي السابق ـ الصف الحالي كان أقل بشكل ما من الصف الذي تركته ـ وبدأت انظر الى التلاميذ الذين هم في مثل سني باحتقار وعلى انهم ليسوا أكثر من أطفال.

واستمرت الأمور على هذا الحال عاماً، أو أكثر. والزيارات التي كنت أقوم بها، بشكل متقطع، إلى البيت كانت تجعلني أواجه البرودة فأحس بالسرور للرحيل من جديد.

كان ذلك في أول نوفمبر (تشرين الثاني). وكنت قد تعودت على القيام ببعض النزهات التأملية القصيرة على قدمي أياً كان الطقس، فأستمتع فيها بنوع من النشوة الممزوجة بالسوداوية واحتقار العالم وكره الذات. وهكذا كنت أتجول ذات مساء في العتم الضبابي الذي يلف المدينة. كان الطريق العريض الموصل الى حديقة عامة مهجوراً وبدا كأنه يدعوني الى الدخول. وكان الممر مغطى بكثافة بالأوراق المتساقطة التي كنت أبعثرها بقدمي غاضباً. كانت هناك رائحة رطوبة واخزة وأشجار بعيدة ذات ظلال كالأشباح تزداد ضخامة بفعل الضباب.

وقفت متردداً في آخر الطريق أحدق الى الخضرة الداكنة وأنا أستنشق العبير الرطب للعفونة وللموات اللذين استجاب لهما بترحيب شيء ما في أعماقي. ومن

أحد الممرات الجانبية خطا شخص ما وسترته تنتفخ حين يمشي وكنت على وشك أن أتابع سيري عندما ناداني صوت: «مرحبا يا سنكلير».

وتقدم مني. كان هذا ألفونس بيك أكبر أولاد القسم الداخلي سناً كنت دائماً أسر لرؤيته. ولا شيء في نفسي ضده إلا انه كان يعاملني، وجميع الآخرين الذين هم أصغر منه، بنوع من الاحتقار الخؤولي الساخر. كان يشاع عنه انه قوي كالدب وان لديه معلماً في إقامتنا الداخلية طوع بنانه. انه بطل العديد من شائعات التلاميذ.

ـ ما الذي تفعله هنا؟ قال بدماثة يتميز بها الأولاد الكبار عندما يضطرون بين حين وآخر للتحدث مع واحد منا «سأراهن بأي شيء على انك تؤلف قصيدة».

ما كان لي أن أفكر بذلك. أجبته بجفاف.

ضحك ضحكة عالية ومشى إلى جانبي وحدثني قليلاً بطريقة لم أتعودها منذ زمن بعيد.

ـ لست في حاجة الى الخوف من انني قد لا افهم يا سنكلير. هناك شيء ما في المشي مع الأفكار الخريفية وسط ضباب المساء. أنا اعرف ان المرء يود لو يؤلف القصائد في وقت كهذا. عن الطبيعة الهاجعة، بالتأكيد، وعن الشباب الضائع الذي يشبهها. هاينريش هاينه مثلاً.

قلت مدافعاً عن نفسي: لست عاطفياً إلى هذا الحد.

ـ طيب، فلننس الموضوع. ولكن يبدو لي انه في طقس كهذا حين يبحث المرء عن مكان هادىء يستطيع ان يشرب فيه كأساً طيّبة من الخمر أو شيئاً آخر فانه يفعل عين العقل. هل تشاركني؟ بالصدفة أنا وَحدي تماماً في هذا الوقت. أم أنك تفضل أن لا تشاركني؟ لا أريد أن أكون الشخص الذي يقودك في طريق الضلال. يا عجوزي* أعني إن صدف أن كنت من النوع الذي يسير في الطريق المستقيم

* وردت هذه الكلمة بالفرنسية.

والضيق.

سرعان ما كنا جالسين في حانة صغيرة في طرف المدينة ونحن نشرب خمرة رديئة ونقرع كأسينا السميكتين. لم يعجبني الأمر كثيراً ولكنه شيء جديد على الأقل. ولأنني لست متعوداً على الخمر سرعان ما انحلت عقدة لساني. كما لو ان نافذة داخلية قد انفتحت ومن خلالها كان العالم يتأجج منذ كم من الزمن، منذ كم من الزمن الطويل الرهيب لم أتحدث الى أحد؟! وبدا خيالي يركض معي وفي النهاية انطلقت بقصة قابيل وهابيل.

كان بيك يستمع باستمتاع واضح ـ أخيراً هاهنا شخص أستطيع أن أمنحه شيئاً! ربت على كتفي ودعاني بالزميل، فامتلأ قلبي منتشياً لهذه الفرصة للاسترسال تلبية لحاجة طال احتباسها للتواصل في الحديث وفرحاً باعتراف ولد أكبر مني. وحين سماني السافل الصغير الملعون البارع انسكبت الكلمات في روحي مثل خمرة حلوة. وشعشع العالم بألوان جديدة، واندفعت الأفكار من مئات الينابيع المتفجرة. وتأججت نار الحماس في داخلي ناقشنا معلمينا وزملاءنا التلاميذ وبدا لي ان كلاً منا يفهم الآخر جيداً. تحدثنا عن اليونانيين والوثنيين. وكان بيك يريدني بإلحاح أن أعترف له انني قد سبق لي انْ نمت مع بنات. لكن هذا لم يحدث. لم يسبق لي ان جربت شيئاً في هذا المجال، لا شيء مما يستحق ان يُروىٰ. وما كنت أشعر به، وما كنت أبنيه في خيالي، كان يؤلمني من الداخل لكنه لم يتراخَ ولم يصبح قابلاً للتوصيل بفعل الخمر. بيك كان يعرف أكثر بكثير عن البنات. ولذا رحت أصغي الى مآثره دون أن تكون لديّ القدرةعلى النطق بكلمة واحدة. كنت اسمع أشياء لا تصدق. الأشياء التي لم أكن أظن انها ممكنة صارت أموراً يومية ومألوفة وبدت طبيعية. ألفونس بيك، الذي كان في الثامنة عشرة، بدا قادراً على ان يرسم لوحة كبيرة من الخبرة والتجربة. فلقد تعلم، مثلاً، ان ما يضحك في البنات أنهنّ يردن الاكتفاء بالغزل والمداعبة وهذا ممتاز ولكنه ليس الشيء الحقيقي. ومن أجل الشيء الحقيقي يأمل المرء في نجاح اكبر مع النساء. النساء معقولات

أكثر، فالسيدة جاغيلت، مثلاً، التي تمتلك المخزن في المحطة، معها يستطيع الانسان ان يتحدث في الشغل، والأمور التي تحدث وراء طاولة الحساب، عندها لا تصلح للذكر في كتاب.

كنت أجلس مشدوهاً ومصعوقاً. بالتأكيد ما كان من الممكن أن أحب السيدة جاغيلت ـ لكن الأخبار كانت لا تصدق. يبدو ان هناك مصادر خفية للمتعة، وللكبار بشكل خاص، لم أكن حتى قد حلمت بها. ان فيها شيئاً ما غير صحيح، ويبدو أقل جاذبية وأكثر عادية من الحب، حسبما افترضت ن يكون عليه ـ ولكن على الأقل. هذا واقعي، هذه هي الحياة والمغامرة، والى جانبي يجلس شخص قد جربه ويبدو له الأمر طبيعياً.

ما أن بلغت محادثتنا هذا الحد من التصاعد حتى بدأت تخفت تدريجياً. لم أعد السافل الصغير الملعون البارع؛ بل تقلصت الى مجرد ولد يصغي لحديث رجل. ومع ذلك ـ وبالمقارنة مع ما كانت عليه حياتي خلال أشهر ـ ظل الأمر ممتعاً فهذه هي الجنة. وإلى جانب ذلك فإن الأمر، كما بدأت أدرك بالتدريج، ممنوع منعاً باتاً ـ ابتداء بوجودنا في البار وانتهاء بموضوع حديثنا. على الأقل بالنسبة لي كانت له نكهة العصيان.

أستطيع تذكر هذه الليلة بوضوح شديد. عدنا الى المنزل في الجو الرطب ونحن نمر بمصابيح غازية تنشر ضوءاً ضئيلاً في آخر هذا الليل: للمرة الأولى في حياتي كنت سكراناً. ولم يكن الأمر مريحاً، بل في الحقيقة هو مزعج لكن فيه شيئاً، رعشة حلاوة عربدة العصيان. هذه هي الحياة والنفس. لقد قام بيك بعمله جيداً من ناحية الاهتمام بي على الرغم من انه شتمني بقسوة وسماني «المبتدىء اللعين» وأوصلني الى المنزل ما بين حملي وقيادتي. وهناك نجح في تهريبي عبر نافذة مفتوحة الى الردهة.

الواقع الصاحي الذي استيقظت عليه بعد نوم قصير كنوم الأموات كان متوافقاً مع إحباط مؤلم وعديم الإحساس. جلست في سريري وقميصي ما يزال عليّ، أما

بقية ملابسي فموزعة على الأرض وتفوح منها رائحة التبغ والقيء. وما بين نوبات الصداع والقرف والظمأ الشديد مرت ببالي صورة لم ارها منذ زمن طويل؛ تصورت بيت أبوي، بيتي، أبي وأمي وأخواتي، والحديقة. كنت أستطيع رؤية غرفة النوم الأليفة والمدرسة والسوق. وكنت أستطيع رؤية دميان ودروس الدين - كان كل شيء جميلاً ونقياً، وكل شيء، هذا كله - كما أدركت الآن - كان لي البارحة قبل عدة ساعات، وكان ما يزال ينتظرني. أما الآن، وفي هذه الساعة بالذات، فقد بدا كل شيء منتهكاً وملعوناً، ولم يعد لي، صار يرفضني وينظر اليّ بقرف. كل ما هو عزيز وأليف، كل ما سبق ان منحني إياه أبواي منذ ايام حدائق طفولتي البعيدة، كل قبلة من أمي، كل عيد ميلاد، وكل صباح أحد مقدس ومشبع بالنور في البيت، كل زهرة في الحديقة - كل شيء قد خُرب، كل شيء قد دست عليه **أنا** ولوأن يد القانون تطالني أو أن تقيدني وتكممني وتقودني الى المشنقة بصفتي حثالة المجتمع ومدنس المعبد، لما اعترضت ولسرت معها بطوعي ولاعتبرت حكمها عادلاً ومنصفاً.

هذا ما كانت عليه حالتي، داخلياً! أنا الذي كنت أتعامل مع العالم باحتقار! أنا الذي كنت متكبراً وأشارك دميان أفكاره! هذا ما أنا عليه، قطعة براز، خنزير قذر، سكير وقذر، كريه وغر، وحش وضيع تنحط به شهواته الخبيئة. هذا ما أنا عليه، أنا، الذي جاء من تلك الحدائق الطاهرة حيث كل شيء نظيف وبهي وحنون، أنا الذي كنت أحب موسيقى باخ والشعر الجميل. بقرف وغضب كنت ما أزال أسمع حياتي، وأنا سكران وعنيد، وهي تنخلع مني بضحكة بلهاء، بعنف واندفاع. هذا ما انا عليه.

وعلى الرغم من كل شيء فإنني كنت أستمتع، تقريباً، بآلامي. لقد صرت أعمى وعديم الإحساس. صمت قلبي طويلاً، وتكورت بجبن وضعف في زاوية بحيث أصبح اتهام الذات هذا، وهذا الخوف، وهذه المشاعر الرهيبة، مقبولة. على الأقل هي أحاسيس من نوع ما، على الأقل هناك نوع من اللهب. القلب، على الأقل، كان يخفق. ووسط تشوشي أحسست بشيء أشبه ما ما يكون بالتحرر

بين هذا البؤس كله.

وفي الوقت ذاته، وبالنظر إلي من الخارج، كنت أنحدر بسرعة شديدة وجنون سكـرتي الأولى سرعان ما تلاه جنون آخر وآخر. مرات عديدة ذهبنا الى البارات وصخبنا في المدرسة. كنت من أصغر المشاركين ولكن سرعان ما لم أعد مجرد غر يضطر الآخرون لأخذه معهم، بل أصبحت زعيم المشاغبين والنجم بينهم وصرت رائد البارات الجريء والمشهور. ومرة أخرى أعدت انتمائي الى عالم الظلمة وإلى الشيطان. وفي هذا العالم صارت لي سمعة الزميل الشيطاني.

وعلى الـرغم من ذلـك كنت أحس بالتعاسة. كنت أعيش صخب تدمير الذات، وفي الوقت الذي كان أصدقائي فيه ينظرون إليّ كقائد وزميل ظريف وحاد الذكاء، إلا انني في أعماق نفسي كنت حزيناً. وما أزال أستطيع تذكر الدموع وهي تندفع إلى عيني كلما رأيت أولاداً يلعبون في الشارع صباح الأحد وأنا خارج من البـار. أولاد سُرح شعـرهم للتو ولبسوا أفضل ما لديهم من أجل يوم الأحد. أما الأصدقاء الذين كانوا يجالسونني في أحط أنواع الخمارات بين بقايا البيرة الموحلة والطاولات القذرة. فقد، كنت أسليهم بتلميحاتي ذات الشكوك الجديدة عليهم؛ بل وحتى كنت أصدمهم. ولكن في اعماق قلبي كنت متألماً من كل شيء أستصغره وكنت أنتحب أمام روحي وماضيَّ وأمام أمي وإلهي.

هناك سبب مهم وراء عدم انسجامي الكامل مع رفاقي، وشعوري بالوحدة بينهم، الأمر الذي جعلني أعاني الكثير. لقد كنت بطل البارات، وكنت ساخراً لارضاء اذواق الأكثر وحشية منهم. اظهرت ذكاء وجرأة في افكاري وتلميحاتي حول المعلمين والمدرسة والآباء والكنيسة. وكنت، أيضاً، أحتمل سماع أقذر القصص لا بل انني كنت أغامر بين حين وآخر بحكاية. لكنني لم أكن ارافق زملائي حين يذهبون الى النساء. كنت وحيداً ومليئاً بتوق حاد الى الحب، توق مُضنٍ ويائس. وفي الوقت ذاته، لو حكم عليّ من خلال كلامي، لكنت بدوت شهوانياً واقعياً. لم

يكن بينهم من هو اسرع بالتأذي مني أو أسرع في الخجل. وحين كنت أرى بنات المـدينـة الفتيات المؤدبـات وهن يمشين أمـامي، جميلات ونـظيفات، بريئات وبهيات، فقد كنَّ يبدين مثل أحلام طاهرة مدهشة وأكثر ملاءمة لي بما لا يقاس. ومـر وقت طويل وأنا لا استطيع ان أجبر نفسي حتى على دخول حانوت السيدة جاغيلت في المحطة كأنني كنت أحمر خجلاً وأنا أنظر اليها متذكراً ما حكاه لي ألفونس بيك.

وكلما زاد ادراكي لانني سأبقى وحيداً دائماً ومختلفاً بين شلة أصدقائي فإن قدرتي على تركهم تتناقص. والحقيقة انني لم اعد اعرف ما اذا كان السكر والعربدة يمنحانني المتعة فعلاً أم لا والأكثر من ذلك انني لم اتعود على الشرب تماماً وإلى حد ان افقد معه الاحساس بالآثار المربكة بعده. كنت وكأنني مضطر لفعل ذلك كله. لقد كنت افعل ما كان يجب أن افعله لأنني لا اعرف شيئاً آخر أفعله بنفسي. كنت أخاف من البقاء وحيداً لمدة طويلة، وأخاف من الحالات البريئة والحنون التي قد تتغلب عليّ أو أخاف من افكار الحب التي تضطرم في داخلي.

ما كنت أفتقد إليه اكثر من أي شيء آخر هو الصديق. كان هناك اثنان أو ثلاثـة من الـزمـلاء التـلاميذ ممن يمكن أن أهتم بهم ولكنهم من ذوي السمعة الحسنـة. وكـانت رذائلي، منـذ وقت طويل، قد اصبحت سراً مكشـوفـاً. كانوا يتجنبونني، وكنت أُعتبر متمرداً ميؤوساً منه تنزلق الأرض من تحت قدميه. وكان المعلمون يعرفون أخباري جيداً، ولقد عوقبت بقسوة عدة مرات وصار الطرد النهائي مسألة وقت. وأدركت انني تلميذ خائب، لكنني كابرت بمشقة فحصاً بعد الآخر، وأنا أشعر دائماً ان الأمور لا يمكن ان تستمر على هذا المنوال طويلاً.

هناك طرق عديدة يستطيع الله ان يجعلنا بها وحيدين ويقودنا بها الى أنفسنا. وتلك هي الطريقة التي عاملني بها في ذلك الحين. كان الأمر أشبه بحلم مزعج. استطيع الآن ان ارى نفسي: وأنا ازحف في طريقي البغيض القذر، وسط القذارة والـطين، بين زجـاجـات البيرة المكسـورة والليالي المـاجنـة المهـدورة، حالماً

مسحوراً، قلقاً ومرهقاً. هناك أحلام تكون فيها في طريقك الى الأميرة ثم تغرز في مستنقع في الحواري الخلفية المفعمة بالروائح البشعة والنفايات. هكذا كان الأمر معي. وبتلك الطريقة غير المريحة حُكم عليّ أن أكون وحيداً وقد أقمت بيني وبين طفولتي باباً مغلقاً الى الجنة معززا بحرس قساة لامعين. تلك كانت البداية، يقظة التوق المرضي الى نفسي السابقة.

إلا انني لم أبلغ من القسوة حداً يجعلني لا ارتعش تحت وخزات الخوف عندما ظهر والدي، وقد أقلقته رسائل معلمي، لأول مرة في مدرسة القديس ـ وواجهني دون توقع. ومرة أخرى، في ذلك الشتاء، حين جاء للمرة الثانية، لم يبق هناك ما يمكن أن يؤثر فيّ ويحركني. تركته يوبخني ويستعطفني، ويذكرني بأمي. وأخيراً عند نهاية المقابلة ازداد غضبه فقال ان لم أتغير فإنه سيجعلهم يطردونني من المدرسة مخزياً لكي أوضع في اصلاحية ـ طيب. فليفعل! وحين ذهب هذه المرة شعرت بالحزن عليه. انه لم ينجز شيئاً. لم يستطع ان يجد طريقة اليّ ـ وفي لحظات كنت أحس ان هذا ما يستحقه.

لا يمكن ان يكون قد بلغ استهتاري بنفسي حداً أكبر من ذلك. بأسلوبي الفظ والغريب كان الذهاب إلى البارات والتباهي بذلك هو أسلوبي في الخصام مع العالم.كانت تلك طريقتي في الاحتجاج. وكنت خلال ذلك أدمر نفسي. ولكنني في أحيان أخرى كنت أفهم الحالة كما يلي: ان كان العالم غير قادر على الاستفادة ممن هم مثلي، واذا لم يكن لديه مكان أفضل أو مهام أسمى لهم، فان من هم مثلي، في هذه الحالة، سوف يتدهورون؛ والخسارة، عندها، ستكون خسارة العالم.

كانت عطلة عيد الميلاد أمراً غير ممتع في ذلك العام. انزعجت أمي كثيراً حين رأتني. كنت قد ازددت طولاً، وصار وجهي النحيل يبدو رمادياً ومهزولاً، بقسمات رخوة وعينين حمراوين. أول زغب الشاربين والنظارات التي كنت قد بدأت بلبسها جعلا شكلي أكثر غرابة. خجلت أخواتي مني فاختفين ورحن

يتلصصن. كل شيء كان مخيباً. والحديث مع أبي في مكتبته كان مخيباً ومريراً، إضافة الى تبادل مخيب للتحيات مع بعض الأقارب، وبشكل خاص أمسية عيد الميلاد ذاتها كانت مزعجة. منذ ان كنت طفلاً صغيراً كانت هذه الليلة حدثاً عظيماً في بيتنا. كان المساء مهرجاناً من الحب والامتنان تتجدد فيه الرابطة بين الطفل وأبويه. أما هذا المساء فقد كان كل شيء فيه إحباطاً وإرباكاً فقط. وكالعادة قرأ والدي المقطع المتعلق بالرعاة في الحقول «يرعون قطعانهم» وكالعادة وقفت أخواتي مزهوات أمام طاولة حملت بالهدايا، كان صوت والدي تشوبه نبرة الغضب وقد بدا وجهه عجوزاً ومتوتراً، وأمي كانت حزينة. بدا كل شيء في غير مكانه: الهدايا وتحيات عيد الميلاد، قراءة الإنجيل والشجرة المنورة. كانت رائحة كعكة الزنجبيل طيبة وكانت ترشح ذكريات أحلى وأطيب. وكان شذا شجرة الميلاد يحكي عن عالم لم يعد موجوداً. وصرت أتمنى ان ينتهي هذا المساء وأن تنتهي العطلة.

استمر الأمر على هذا المنوال طوال الشتاء. بعد عودتي بقليل تلقيت إنذاراً شديد اللهجة من مجلس المعلمين وتهديداً بالطرد. لا يمكن ان تستمر الأمور هكذا؛ ولم أهتم.

كنت أحمل حقداً خاصاً جداً على ماكس دميان، الذي لم اره مرة اخرى بعد ذلك. ولقد كتبت اليه مرتين خلال الأشهر الأولى من دوامي في المدرسة لكنني لم أتلقَّ جواباً، ولذا فانني لم أزره في العطلة.

في الحديقة ذاتها التي التقيت فيها بألفونس بيك في الخريف لفتت انتباهي في اوائل الربيع فتاة عندما كانت أشواك السياج قد بدأت تزهر. كنت أتمشى وحيداً ورأسي مليء بالأفكار الحقيرة والمتاعب ـ لأن صحتي كانت قد بدأت تتدهورـ ولكي يزداد الأمر سوءاً كنت دائماً في ضائقة مالية ومديناً للأصدقاء بمبالغ كبيرة مما كان يجْعلني مضطراً دائماً لاختراع نفقات أتلقى من أجلها نقوداً من البيت، وفي عدد من الحوانيت تركت الفواتير تتراكم حول التبغ وأشياء أخرى مشابهة. ولم يكن

هذا ليهمني كثيراً. فان كان وجودي كله مهيئاً للوصول الى نهاية مفاجئة ـ إذا أغرقت نفسي أو أرسلت الى اصلاحية ـ فإن حسابات صغيرة اضافية لم تكن لتعني شيئاً. لكنني كنت مجبراً على ان أعيش في مواجهة هذه التفاصيل المزعجة: كانت تجعلني بائساً.

في ذلك اليوم الربيعي في الحديقة رأيت امرأة فتية جذبتني. كانت طويلة ونحيلة أنيقة الملابس ولها وجه صبياني ذكي. أعجبتني فوراً. إنها من النوع الذي أحب ولذا فقد بدأت تملأ مخيلتي. ربما لم تكن أكبر مني سناً بكثير لكنها كانت تبدو ناضجة أكثر مني بكثير، ذات شخصية واضحة، امرأة مكتملة النضج ولكن مع لمسة بدانة وتصابٍ في وجهها وهذا ما أحببته فيها قبل كل شيء.

لم يسبق لي ان فكرت في مسألة التقرب الى فتاة أحببتها ولم أفكر في حالة كهذه. ولكن الانطباع الذي خلفته لدي كان أعمق من أي انطباع مسبق. وقد سبق أن كان للإفتتان ذلك التأثير العميق على حياتي

وبغتة برزت أمامي صورة جديدة، صورة ودودة وعميقة الأثر. ولم تكن هناك حاجة أو دافع أكثر عمقاً أو أكثر اتقاداً من الحاجة الى التعبد والاعجاب. أعطيتها اسم بياتريس. وعلى الرغم من انني لم أكن قد قرأت دانتي الا انني كنت أعرف عن بياتريس من لوحة انكليزية كانت لديّ نسخة عنها. وكان فيها امرأة من نمط ماقبل رافائيل، ذات اطراف طويلة ونحيلة، ولها رأس طويل ويدان أثيريتان وقسمات أثيرية. ولم تكن فتاتي الجميلة تشبهها تماماً على الرغم من انها أيضاً تكشف عن هذا الشكل النحيل الصبياني الذي كنت أحب، وفيها شيء من تلك الخاصية الأثيرية الروحانية في وجهها.

وعلى الرغم من انني لم اوجه لبياتريس أية كلمة، الا انها مارست تأثيراً كبيراً عليّ في ذلك الحين. كانت ترفع خيالها أمامي وتحقق لي الوصول الى مزار مقدس وكانت تحولني الى عابد في معبد. ومن اليوم الأول الى الثاني ظللت نظيفاً من البارات ومن المآثر الليلية استطعت مرة اخرى ان ابقى وحيداً مع نفسي وأنا

استمتع بالقراءة وأن أتمشى طويلاً.

تحولي المفاجىء جرّ عليّ الكثير من السخرية فى أعقابه، لكن لدي الآن ما أحبه وأبجله، صار لي من جديد مثل أعلى، صارت الحياة غنية بالاعلان عن سر وبالشعور بفجر جعلني منيعاً على المآخذ كلها. لقد عدت مرة اخرى الى نفسي ولو، حتى، كعبد وخادم لصورة عالقة في الذهن.

وانني لأجد صعوبة في العودة الى التفكير في ذلك الوقت دون نوع من الولع. ومرة اخرى رحت أحاول جاهداً بناء «عالم نور» أليف لنفسي ومن ترنحات فترة من التخريب. ومرة أخرى ضحيت بكل ما هو في داخلي من أجل طرد العتم والشر من نفسي. وأكثر من ذلك «عالم النور» الحالي هذا كان الى حد ما من صنعي. لم يعد مهرباً ولا زحفاً الى الوراء نحو الأم ونحو امان اللامسؤولية. انه واجب جديد، واجب اخترعته ورغبت فيه بحريتي وبمسؤولية وسيطرة على الذات وغرائزي الجنسية، ذلك العذاب الذي كنت أعيش هرباً دائماً منه، صارت عرضة للتحول الى روحانيات والى تفان في هذه النار المقدسة. كل ما هو معتم و كريه صار عرضه للطرد، ولم يعد هناك مجال لليالي العذاب، ولا للإثارة أمام الصور الداعرة، ولا للتلصص من الأبواب المحرمة، ولا للشهوات. وبدلاً من هذا كله أقمت مذبحي لصورة بياتريس. وبتكريس نفسي لها كنت أكرس نفسي للروح وللآلهة، وبذلك الجزء من الحياة الذي استقيته من قوى الظلام كنت أضحي من أجل قوى النور. ولم يكن هدفي الغبطة بل الطهارة، لم يكن السعادة بل الجمال والروحانية.

مذهب بياتريس، هذا، غير حياتي كلياً. بالأمس كنت شهوانياً قبل أوانه واليوم أنا القندلفت الذي له هدف واحد هو ان يصبح قديساً، ولم أكتف بتجنب الحياة السيئة التي صرت متعوداً عليها، بل رحت أسعى إلى تحويل نفسي بتقديم الطهارة والسمو الى كل جانب من جوانب الحياة. وفي هذا المجال رحت افكر في عاداتي المتعلقة بالطعام والشراب وبلغتي ولباسي صرت أبدأ صباحي بحمام

بارد، كلفني جهداً كبيراً في البداية، صار سلوكي جاداً ومحترماً. صرت أتصرف بشكـل رسمي وأسير بخـطى بطيئة وموزونة، وربما بدا هذا مضحكاً للغرباء أما بالنسبة لي فقد كان طقس عبادة صادقاً.

بين التصرفات الجديدة التي قمت بها لأعبر عن قناعاتي الجديدة صار واحد منها يتمتع بأهمية خاصة بالنسبة لي. ونقطة البداية هي ان النسخة التي لديّ من الصورة **الانكليزية** لم تكن تشبه فتاتي، بياتريس، بما فيه الكفاية. وبمتعة وأمل جديدين اشتريت ورقاً جميلاً، وألواناً، وفراشي، وأخذتها الى غرفتي - في ذلك الحين كنت قد أعطيت غرفة مستقلة - وهيأت صفيحتي وكأسي وصحون البروسلين والأقلام. لقد أفرحتني الألوان المرهفة في الأنابيب الصغيرة التي اشتريتها. وكان بينها لون أخضر كروم ناري اظن انني ما زال استطيع ان أراه وهو يتوهج أمامي لأول مرة في الصحن الأبيض الصغير.

بدأت بحـرص بالغ. كان رسم الوجه صعباً. ولذا اردت أن أجرب نفسي بشيء آخر في البداية. رسمت زينة وأزهاراً ومناظر طبيعية صغيرة خياليـة؛ شجرة قرب كنيسة صغيرة، جسراً رومانياً ومعه أشجار سرو. كنت أحياناً أغرق في هذه اللعبة بسعادة طفل صغير مع علبة ألوانه. وأخيراً بدأت بصورة بياتريس.

عدة محاولات فشلت فشلاً ذريعاً فأتلفتها. وكلما زادت جهودي في تخيل وجه الفتاة التي كنت أصادفها في الشارع كان نجاحي يزداد ضآلة. وأخيراً ألغيت المحاولة ورضيت بالاستسلام لخيالي وحدسي اللذين برزا تلقائياً من الضربات الأولى وكأنهما ينبعان من اللون والفرشاة بالذات. كان وجهاً من الأحلام ذلك الذي توصلت اليه ولم أكن مخيباً به. إلا انني أصررت. وكان كل «سكيتش» جديد أكثر تميزاً وقرباً من النموذج الذي أرغب فيه حتى وهو لا يمثل الواقع بأية حال.

تعودت تدريجياً على الرسم العشوائي للخطوط بفرشاة رسم حالمة وعلى تلوين مساحات دون نموذج مسبق في الذهن وكانت كلها نتيجة التلمسات اللاهية للاوعي. وأخيراً ذات يوم رسمت، ودون أن أنتبه، وجهاً استجبتُ له استجابة أقوى

من استجابتي لأي من الوجوه الأخرى. لم يكن وجه تلك الفتاة ـ ولم يعد المقصود الوصول اليه. كان شيئاً آخر، شيئاً غير حقيقي لكنه لم يكن بالنسبة لي أقل قيمة. كان أقرب الى وجه الصبي منه الى وجه الفتاة، ولم يكن الشعر تبنياً شاحباً مثل شعر فتاتي الحلوة، بل كان رمادياً قاتماً مع وهج محمر. وكانت الذقن قوية وتوحي بالتصميم، والفم كان مثل وردة حمراء. بشكل عام كان قاسياً وأشبه بالقناع الا انه كان موحياً ومترعاً بحياة سرية نابعة منه بالذات.

وحين جلست أمام الرسم المنتهي كان له تأثير غريب عليّ. كان يشبه نوعاً من صور الآلهة أو الأقنعة المقدسة، نصفه ذكر ونصفه أنثى، بلا عمر، هادف بمقدار ما هو حالم، وجامد بمقدار ما هو حي سراً. كان يبدو أن لدى هذا الوجه رسالة لي، أنه يخصني، أنه يطلب مني شيئاً ما. كان فيه شبه بشخص ما، لكنني لم أعرف من هو.

ظلت الصورة تهيمن على أفكاري وتشاركني حياتي فترة من الزمن. خبأتها في درج لكي لا يأخذها أحد ويسخر مني بها. ولكنني ما ان أصبح وحدي في غرفتي الصغيرة حتى أخرجها وأحادثها. في المساء كنت اعلقها على الجدار مواجهة لسريري وأظل أحدق إليها حتى أنام. وفي الصباح كانت أول ما تقع عيناي عليه.

في هذا الوقت بالتحديد بدأت من جديد أحلم أحلاماً كثيرة، كما سبق ان كنت وأنا طفل. وشعرت كما لو انني لم أحلم منذ سنوات. ولكن الأحلام قد عادت الآن بصور جديدة. ومرة بعد أخرى صارت الصورة تظهر بينها حية وواضحة، ودودة معي او عدائية، أحياناً تتشوه بتكشيرة، وأحياناً في غاية الجمال والانسجام والسمو.

وفي صباح أحد الأيام، وحين استيقظت من واحد من هذه الأحلام، عرفت الوجه فوراً. كان ينظر اليّ وكأنه متآلف معي بشكل لا يصدق. وبدا وكأنه ينطق بإسمي. كان يبدو انه يعرف من أكون، كأنه أم، كأن عينيه كانتا متركزتين عليّ منذ بدء الزمان. وبقلب خافق رحت أحدق إلى الورقة، إلى الشعر الرمادي المتراص،

الفم نصف الأنثوي، الجبهة الصارمة بألقها الغريب (لقد صارت هكذا تلقائياً بعد ان جفت) وشعرت بنفسي أقرب فأقرب إلى التعرف عليها، إلى اعادة اكتشافها، إلى معرفتها.

قفزت من سريري وتقدمت من الوجه. وعن بعد إنشات تطلعت في عينيه المفتحتين الواسعتين المخضرتين الصارمتين، والعين اليمنى أعلى من العين اليسرى بقليل. وبغتة ارتعشت العين اليمنى، رعشة خفيفة وصغيرة لكنها رعشة لا تخطئها العين، واستطعت أن أتعرف على الصورة.

لم استغرقَ الأمر مني كل هذا الوقت؟ لقد كان وجه دميان.

فيما بعد كثيراً ما كنت أقارن الصورة بتقاسيم دميان الحقيقية كما أتذكرها. لم تكن أبداً التقاسيم نفسها على الرغم من وجود تشابه. ولكن مع ذلك فهو دميان.

ذات مرة انحرفت شمس الصيف المبكر الحمراء عن نافذة تواجه الغرب. وبدأ الظلام يخيم على غرفتي وخطر لي أن أعلق صورة بياتريس، أو دميان، على قضبان النافذة لكي أراقب شمس المساء وهي تشع من خلالها. غامت الخطوط التي تحدد الوجه لكن العينين بحوافهما الحمراء، والألق على الجبهة والفم الأحمر المشع ظل هذا كله يتوهج بعنف من السطح، جلست مدة طويلة في مواجهتها، وحتى بعد غياب الشمس. وتدريجياً بدأت أحس ان هذا ليس بياتريس ولا دميان بل هو انا ليس بمعنى ان الصورة تشبهني ـ ولم أشعر أنها يجب أن تشبهني ـ بل انها ما حدد لي حياتي، نفسي الداخلية، مصيري أو ديموني* هكذا يجب ان يبدو صديقي ان كنت سأجد في المستقبل كله صديقا من جديد. وهكذا ستكون المرأة التي أحبها إن أحببت إمرأة في مستقبلي كله. وهكذا ستكون حياتي ووفاتي، هذه نغمة مصيري وإيقاعه.

خلال تلك الأسابيع كنت قد بدأت قراءة كتاب أثَّر فيّ أكثر مما أثر أي كتاب

* من هنا يتضح دميان. ان الاسم قريب، في لفظه، من دايمون أو ديمون وهي كلمة تحمل معاني عديدة متقاربة. ففي المورد: ١ ـ الروح الحارسة. ٢ ـ شيطان، عفريت. ٣ ـ نصف إله في الميثولوجيا اليونانية ٤ ـ شخص ذو قوة أو براعة عظيمة

آخر سبق أن قرأت. وحتى فيما بعد فقد ندر ان عرفت كتاباً أكثر قوة، بإستثناء نيتشه ربما، كان كتاباً لنوفاليس، يحتوي على رسائل وأقوال مأثورة لم أفهم منها إلا القليل لكن كانت لها جاذبية غامضة ولا يمكن التعبير عنها. ويرِدُ إلى ذاكرتي الآن أحد الأقوال المأثورة وكنت قد كتبته تحت الصورة: «المصير والمزاج كلمتان لمعنى واحد ومفهوم واحد». لقد صار هذا واضحاً لي الآن.

كثيراً ما كنت أرى الفتاة التي سميتها بياتريس لكنني لم أكن أشعر بأية عاطفة أثناء هذه اللقاءات، بل مجرد تهويم لطيف وحس داخلي ناعم يقول: أنا وأنت مرتبطان ولكن ليس أنت بالذات بل صورتك. أنت جزء من مصيري.

وهيمن عليّ من جديد شوقي إلى دميان. منذ سنوات لم أتلق شيئاً من أخباره. قابلته مرة خلال إحدى العطل. وأدركت الآن انني قد أخفيت هذا اللقاء القصير في مذكراتي وأعرف انني قد فعلت ذلك من قبيل الغرور والخجل معاً. وعليّ أن أعوض عن ذلك.

ففي أحدى العطل، وبينما أنا أتمشى عبر بلدتنا مرهقاً، من أيام البارات المرهقة، متطلعاً إلى وجوه العجائز المحافظين العتيقة المحتقرة ذاتها، رأيت صديقي السابق يمشي باتجاهي. وما كدت ألمحه حتى أجفلت. وفي اللحظة ذاتها لم أستطع منع نفسي من التفكير بفرانز كرومر. آه لو أن دميان قد نسي، فعلاً، تلك الحادثة. لقد كان من المزعج جداً أن أكون مديناً له بمنّة. صحيح انها قصة أولاد سخيفة ولكنها تظل منّة.

بدا أنه ينتظر: هل سأُحييه؟ وحين فعلت ذلك بشكل عادي وطبيعي مد لي يده. نعم. هذه هي قبضته، متينة ودافئة وفيها شيء من البرودة مع القوة مثلما كانت دائماً.

تفحص وجهي ثم قال: «لقد كبرت يا سنكلير» بينما هو ظل كما كان، كبيراً، أو فتياً، كما كان.

رافقني وتمشينا، ولم نتحدث في أمور هامة. وتذكرت أنني كتبت له عدة مرات دون أن أتلقى رداً، وتمنيت أن يكون قد نسي ذلك أيضاً، فيا لها من رسائل سخيفة! ولم يأت على ذكرها.

لم أكن في ذلك الحين قد التقيت ببياتريس وبالتالي لم تكن هناك صورة. كنت ما أزال في معمعة السكر. وفي ظاهر البلدة طلبت منه ان يشاركني كأساً من الخمر فقبل. وفوراً قمت باستعراضية بطلب زجاجة كاملة، ثم ملأت له كأسه. وقرعت كأسي بكأسه وأظهرت له ألفتي القوية مع عادات شرب الطلبة بكرع الكأس الأولى في جرعة واحدة.

وسأل: انك تقضي وقتاً طويلاً في البارات. أليس كذلك؟

فأجبته نعم. وما الذي يمكن أن أفعله غيرذلك؟ في النهاية تبقى البارات مسلية أكثر من غيرها.

ـ أتظن ذلك؟ ربما كان الأمر كذلك. هناك جانب ظريف جداً فيها ـ النشوة وعنصر العربدة. ولكنني أظن ان معظم الذين يترددون على البارات قد فقدوا هذا العنصر تماماً. ويبدو لي ان الذهاب الى البارات نوع من العادات المحافظة. نعم. لا بأس بليلة مع المشاعل. سكرة مجنونة حقيقية! ولكن حين يتكرر الأمر مرة بعد أخرى، وكأساً بعد أخرى فإنني أشك في ان يكون هذا هو الأمر الحقيقي. هل تستطيع تصور فاوست منحنياً على البار ليلة بعد أخرى؟

أخذت جرعة ثم تطلعت إليه بعدائية. وقلت له باقتضاب: ليس كل إنسان فاوست.

تطلع إليّ وقد صدم قليلاً.

ثم ضحك لي بطريقته القديمة الحيوية والفوقية: «طيب. لا داعي لأن نتشاجر من أجل ذلك! على أية حال تظل حياة السكير، فرضياً، أكثر حيوية من حياة المواطن العادي حسن التصرف. ولقد قرأت في مكان ما أن حياة الباحث عن

المتعة هي الإعداد الأول للتحول إلى الصوفية. وأناس مثل القديس أوغسطين هم الذين يصبحون أصحاب رؤى. فهو أيضاً كان في البداية منغمساً في الملذات وصاحب تجارب كبيرة».

شككت فيه ولم أكن راغباً في جعله يتفوق مهما كانت الظروف. ولذا قلت له بتعالٍ: «لكل إنسان ذوقه. بالنسبة لي ليس لديّ أي طموح لأن أصير صاحب رؤى أو شيئاً من هذا القبيل».

تطلع إليّ دميان تطليعة قصيرة قاسية بعينيه نصف المغمضتين. وقال بهدوء وتمهل: يا عزيزي سنكلير، لم أكن أقصد ان أقول لك أي شيء مزعج. وإضافة إلى ذلك ـ ما من أحد بيننا يعرف لماذا صدف انك تشرب الخمرة في هذه اللحظة. لكن الذي، في أعماقك، يسير حياتك هو الذي يعرف. وجميل ان ندرك أن في أعماقنا شخصاً ما يعرف كل شيء ويرغب في كل شيء ويفعل كل شيء أفضل منا نحن. ولكن اعذرني، يجب أن أعود إلى البيت.

تبادلنا تحية وداع مختصرة. وظللت متنكداً لأنهي الزجاجة. وحين أردت أن أغادر اكتشفت ان دميان قد دفع الحساب ـ مما جعل مزاجي يزداد سوءاً.

عادت بي أفكاري الى هذا الحادث الصغير مع دميان. لم أستطع أن أنساه، والكلمات التي قالها لي في ذلك البار عند طرف المدينة تعود إلى البال متجددة وطازجة: «جميل ان ندرك ان في اعماقنا شخصاً ما يعرف كل شيء».

كم اشتقت إلى دميان. لم أكن أعرف أين هو ولا كيف أصل إليه. كل ما كنت أعرفه هو انه ربما كان يدرس في جامعة ما وان أمه قد غادرت البلدة، بعد أن أتم المرحلة الإعدادية.

حاولت ان أتذكر ما استطيعه عن ماكس دميان عائداً بذاكرتي حتى إلى حادثة كرومر. كم عاد إلى ذاكرتي من الكلام الذي قاله لي خلال تلك السنوات، وكله ذو معنى وفائدة اليوم وكله مناسب ومثير لاهتمامي. وما قاله في لقائنا الأخير الهادىء

وغير المريح عن الحياة المهدورة التي تقود الى القدسية عاد هو الآخر إليّ بوضوح. ألم يكن هذا ما حدث لي بالضبط؟ ألم أعش في السكر والفساد، هائماً وضائعاً، الى ان عاش في داخلي العكس وبحماس جديد نحو الحياة، وبتوق نحو الطهارة وتعلق بالقدسي؟

وهكذا رحت أتابع هذه الذكريات. كان الليل قد حل منذ فترة طويلة وبدأ المطر يهطل. وفي ذاكرتي، أيضاً، كنت أسمع المطر: كانت الذكرى عن الساعة التي قضيناها تحت أشجار الكستناء ودميان يحقق معي عن فرانز كرومر، ويحدس بأول أسراري. وراحت حادثة وراء الأخرى تعود إلى ذاكرتي، الأحاديث في الطريق الى المدرسة، دروس الدين، وفي النهاية لقائي الأول به.، ما الذي تحدثنا عنه؟ لم أستطع تذكر ذلك بسرعة لكنني تمهلت ورحت أحصر ذاكرتي بشدة. وحتى صارت تبدو وكأنها تزداد شبهاً بالشعار المتعدد الألوان الذي جاءني في الحلم.

لم أكن لأستطيع الكتابة لدميان حتى لو عرفت عنوانه. لكنني قررت ـ وفي الحالة ذاتها من الشعور السبقي الحالم التي كنت أفعل فيها كل شيء ـ أن أرسل له صورة الباشق حتى لو كانت لن تصل إليه أبداً. ولم أرفق بها رسالة ولا حتى اسمي. زينت حوافها بعناية ثم كتبت العنوان السابق لصديقي عليها. ثم أرسلتها بالبريد.

كان امتحاني يقترب وعليّ ان أزيد جهودي، وكان المعلمون قد أعادوني الى رعايتهم منذ ان غيرت، بشكل مفاجيء، نهج حياتي الخسيس السابق، ولم يكن هذا يعني انني قد صرت تلميذاً مبرزاً ولكن لا أنا ولا أي شخص آخر يمكن أن يخطر له ان طردي قبل نصف عام كان مسألة مؤكدة.

وعادت إلى رسائل والدي لهجتها السابقة دون تودد أو تهديد. إلا أنني لم أحس بما يُلزمني لأن أشرح له أو لغيره كيف حدث التحول في داخلي. وانها

لصـدفة أن يتجاوب هذا التحول مع رغبات والدي وأساتذتي . ولم يدخلني هذا التغيير في تجمعات الآخرين، ولم يقربني من أحد، بل إنه قد جعلني، عملياً، أكثر وحدانية . وكان صلاحي يبدو متوجهاً نحو دميان ولكن حتى هذا كان يبدو بعيد المنال. لم أكن أعرف نفسي لأنني كنت منهمكاً جداً . وغارقاً في الأمر. لقد بدأ كل شيء ببياتريس . ولكن مر وقت لا بأس به وأنا أعيش في عالم غير واقعي مع لوحاتي وأفكاري حول دميان حتى نسيت كل ما يتعلق بها ايضاً . ولم أكن قادراً على التلفظ بكلمـة واحدة عن أحلامي وتوقعاتي ، وعن تحولي الداخلي ، لأي انسان حتى لو أردت ذلك، ولكن كيف كان لي ان أريد ذلك؟

٥ ـ «الطائر يكافح للخروج من البيضة»

كان طائر احلامي المرسوم في طريقه يبحث عن صديقي. وفيما بدا أغرب طريقـة يمكن تصورها وصلني رد.

في الصف، على مقعدي، وبعد استراحة بين درسين وجدت رسالة مثبتة داخل كتابي. كانت مطوية بالطريقة ذاتها التي تطوى بها رسائل زملاء الصف والتي تمرر سراً من واحد إلى آخر أثناء سير الدرس. ولقد أدهشني أن أتلقى رسالة كهذه فأنا لم أُقم صلة من هذا النوع مع أي من التلاميذ. وخطر لي انها ستكون دعوة لمزحة لن أشارك فيها حتماً ـ وضعت الرسالة دون قراءة أمام كتابي. ولم أعد إليها إلا أثناء سير الدرس.

وأنـا ألعب بهـا فتحتها فلمحت عدة كلمات مكتوبة. وكانت نظرة واحدة تكفي. كلمـة واحدة أرعبتني. وبذعر رحت أقرأ والخوف يملأ قلبي: «الطائر يكافح للخروج من البيضة. البيضة هي العالم. والذي يريد أن يولد عليه أن يدمر عالماً. الطائر يطير الى الله. واسم هذا الإله هو أبراكساس»*

بعد قراءة هذه الأسطر عدة مرات غرقت في حلم اليقظة. لم يكن هناك أدنى شك. هذا جواب دميان. ومـا من أحد غيره يعرف شيئاً عن رسمي. لقد التقط

* كلمـة مركبة من سبعة أحرف يونانية كانت تنقش على التعاويذ والتمائم والحلى للاعتقاد بمواصفاتها السحرية، وفي القرن الثاني الميلادي جسّده الغنوسطيون. ـ الموسوعة.

معناه، وكان يساعدني على تفسيره. ولكن كيف انسجم هذا كله معاً؟ و ـ ما ضغط عليّ أكثر من غيره ـ ما الذي يدل عليه أبراكساس؟ لم يسبق لي ان سمعت أو قرأت هذه الكلمة. «اسم هذا الإله أبراكساس».

استمر الدرس دون ان أستفيد منه كلمة. وبدأ الدرس التالي، اخر درس في فترة الصباح. وكان يدرسنا إياه مساعد شاب اسمه الدكتور فولينز، الذي أنهى مؤخراً دراسته الجامعية وكنا نحبه لأنه شاب ولأنه متواضع وبسيط.

كان الدكتور فولينز يشرح لنا هيرودوتس ـ وهذا أحد الموضوعات القليلة التي كانت تثير في أي اهتمام. ولكن لم يكن حتى هيرودوتس قادراً اليوم على اثارة اهتمامي. فتحت الكتاب بآلية ولكنني لم اتابع الترجمة فظللت غارقاً في افكاري، وإضافة الى ذلك كنت قد تأكدت اكثر من مرة مما قاله لي دميان ذات يوم أثناء درس الدين: تستطيع ان تحقق اي شيء ترغب فيه بقوة. فإذا صدف ان كنت غارقاً في أفكاري أثناء سير الدرس فإنني لم أكن لأقلق من إمكانية أن يستدعيني المعلم. أما حين أكون ذاهلاً أو قلقاً فإنه سرعان ما يظهر إلى جانبي، لقد حدث هذا معي سابقاً، ولكن إذا ركزت جدياً، وانغمست كلياً في أفكاري الخاصة بي، فإنني أكون محمياً. كما انني قد جربت لعبة التحديق إلى شخص وكسر نظره وتبين لي أنها مجدية. حين كنت ما أزال مع دميان لم أكن أنجح فيها؛ أما الآن فأشعر أنه يمكن تحقيق الكثير من خلال نظرة حادة وفكرة.

في الوقت الحاضر لم أكن على مقربة من هيرودوتس، أو من المدرسة. وبغتة انطلق صوت المعلم كالبرق في وعيي فأفقت مذعوراً. سمعت صوته، وكان يقف على مقربة مني. بل انني ظننت انه قد لفظ اسمي. لكنه لم يكن ينظر اليّ فاسترخيت. ثم سمعت صوته مجدداً، وبصوت عالٍ لفظ كلمة «أبراكساس».

وضمن سياق شرح مطول، لم ألتقط بدايته، كان الدكتور فولنز يتابع كلامه: «وليس علينا ان نعتبر آراء هذه المذاهب أو الجماعات الصوفية ساذجة وسطحية كما تبدو ومن وجهة النظر العقلانية. فالعلم كما نعرفه نحن اليوم لم يكن معروفاً لدى

القـدمـاء. وبدلاً منه كان هناك انشغال بالحقائق الفلسفية والصعوفية والتي كانت متـطورة جداً. ومـانجم عن هذا الانشغال كان، الى حدما، مجرد سحر وعبث مبتذلين؛ وربما انه كان يؤدي، غالباً، الى الاحتيال والجرائم، ولكن هذا السحر، أيضـاً، كانت له جذوره في الفلسفة العميقة. كما هوالحال، مثلاً، في التعاليم المتعلقـة بأبـراكسـاس التي ذكـرتهـا قبل لحظة. يتردد هذا الاسم في العبارات السحـرية اليونـانية وغالباً ما يعتبر اسم احد معاوني الساحر الذي تؤمن به بعض القبائل غير المتحضرة حتى في أيامنا هذه. ولكن يبدو ان لأبراكساس أهمية أكبر بكثير. ويمكننا تصور الاسم على أنه اسم رب مهمته الرمزية توحيد العناصر الإلهية والشيطانية معاً».

كان الرجل الصغير المتعلم يتحدث بتفهم وحرارة لكن لم يكن أحد يعيره انتباهاً ولكن بما أن اسم أبراكساس لم يعد يتكرر فقد عاد تفكيري إلىشؤوني الخاصة.

تردد صدى تعبير «تـوحيد العناصر الإلهية والشيطانية» في أعماقي هاهنا شيء يمكن ان تتعلق به أفكـاري. لقد سبق لي أن تعرفت إلى هذه الفكرة في محادثاتي مع دميان. وخلال المرحلة الأخيرة من صداقتنا كان قد قال إننا أُعطينا إلهاً لنعبده وهو لا يمثل إلا نصفاً، معزولاً بشكل قسري، من العالم (انه العالم الرسمي المصدَّق المنوَّر) وان علينا ان نتمكن من عبادة العالم كله. وهذا إما أن يعني الحصول على إله هو في الوقت ذاته شيطان أو تأسيس مذهب للشيطان إلى جانب مذهب الله. والآن أبراكساس هو الإله الذي يمثل الله والشيطان معاً.

ظللت فترة طويلة أتابع هذه الفكرة بحماس ولكن دون تحقيق أي تقدم بل إنني استغرقت في قراءة كمية هائلة من الكتب بحثا عن ذكر لأبراكساس. إلا أن طبيعتي لم تكن لتنسجم مع هذا النوع من التقصي الواعي والمباشر الذي لا يجد المرء في بدايته إلا الحقائق التي تصبح راسخة في يده.

وشكل بياتريس الذي شغلت نفسي به باستغراق وحماس راح، تدريجياً،

يغيب أو بالأحرى راح يتراجع ببطء ويزداد قرباً من الأفق ويصبح أكثر شحوباً وبعداً وإبهاماً. لم تعد ترضي تطلعات روحي.

في العزلة الغريبة التي أقمتها لنفسي والتي كنت فيها مثل من يسير في نومه بدأ نمو جديد يتشكل في أعماقي. نما التوق إلى الحياة ـ أو بالأحرى التوق إلى الحب ـ صارت رغبتي الجنسية، التي صعّدتها لفترة من خلال تقديري واحترامي لبياتـريس، تطالب بصورة وموضوعات جديدة، لكن رغباتي ظلت غير متحققة. وكان من المستحيل عليّ أكثر من أي وقت مضى أن أخدع تطلعاتي وأن آمل بشيء من النسـاء اللواتي كان زمـلائي يجـربون حظوظهم معهن. وعدت إلى الأحلام الكثيرة ومعظمها كان في النهار أكثر مما كان في الليل. تصورات وصور ورغبات راحت تبرز في أعماقي بحرية وتسحبني من العالم الخارجي بحيث صارت علاقتي بالعالم الذي أصنعه، من هذه الصور والأحلام والخيالات، أقوى وأكثر صميمية من علاقتي بالعالم الواقعي المحيط بي

حلم محــدد، أو تخيل، ظل يتكـرر. وهـو الـذي كنت أرى فيه معنى. والحلم، الأكثر أهمية وتميزاً على المدى البعيد، كان كما يلي: أكون عائداً إلى بيت أبي ـ وفوق المدخل يتلامع الطائر الانذاري، بلون أصفر على خلفية زرقاء. داخل البيت أمي تتوجه نحوي. ولكن ما ان أدخل وأتوجه لمعانقتها حتى تتغير. تصبـح شكـلاً لم تقـع عينـاي عليه من قبل، طويلاً وقوياً وشبيهاً بماكس دميان وبالصورة التي رسمتها؛ لكنها مختلفة لأنها على الرغم من قوتها فان فيها مسحة انثوية. هذا الشكل يعيدني إلى نفسي، ويغرقني في عناق قوي وراعش. كنت أحس بمزيج من النشوة والرعب ـ فالعناق كان مزيجاً من العبادة القدسية والجريمة في الوقت ذاته. وأشياء كثيرة مقترنة بأمي وبصديقي كانت تتشابك مع هذا الشكل الـذي يعـانقني وكـان عناقه ينتهك كل حدود الاحترام لكنه كان نعمة. وكنت أستيقظ من هذا الحلم أحياناً وأنا مليء بالنشوة العميقة. أما في أحلام أخرى فكنت أمتلىء بالخوف المميت وبالضمير المعذب، وكأنني قد ارتكبت جريمة شنيعة.

تدريجياً ، فقط ، وبلا وعي صارت هذه الصورة الأليفة ترتبط بالإشارة إلى الله الذي كنت أبحث عنه؛ الاشارة التي كانت قد جاءتني من الخارج. ازدادت الرابطة متانة وتآلفاً فبدأت أحس انني أنادي أبراكساس في هذه المشاعر السبقية الواردة في الحلم. الفرح والرعب، الرجل والمرأة يتمازجان، الأقدس والأكثر إرهاباً كانا يتشابكان. ذَنْبٌ كبير يلمع من خلال البراءة الخالصة. هذا كله كان مظهر صورة حلم الحب عندي مع أبراكساس أيضاً. ولم يعد الحب تلك الرغبة الحيوانية القاتمة التي عرفتها في البداية مع الخوف، كما انها لم تعد ذلك التحويل الورع الذي قدمته لبياتريس. بل كانت الأمرين معاً بل وما هو أكثر منهما. كانت صورة ملاك وشيطان، رجل وإمرأة بلحم جسد واحد، رجل ووحش، الخير الأسمى والشر الأكثر انحطاطاً. وبدا لي انه مقدر لي ان أعيش بهذه الطريقة، وان هذا هو مصيري المقدر والمحتوم. كنت أتوق إليه وأخافه معاً. وكان حاضراً دائماً يهوم باستمرار من فوقي.

في الربيع التالي كان عليّ أن أترك المدرسة الثانوية وأدخل الجامعة ولم أكن قد حسمت أمري حول ماذا سأدرس وأين. نبت لي شاربان دقيقان وصرت رجلاً كامل النمو. إلا انني كنت ما أزال تائهاً دون هدف في الحياة. أمر واحد، فقط، كان مؤكداً: الصوت الذي في داخلي وصورة الحلم. شعرت ان من واجبي أن أتبع هذا الصوت دون تبصر وإلى أي مكان يمكن ان يقودني اليه. لكن الأمر كان صعباً وكل يوم كنت أتمرد عليه من جديد. ربما كنت مجنوناً كما كان يخيل إلي من بعض اللحظات؛ أم لعلي لست مثل الآخرين؟ لكنني كنت أستطيع القيام بالأعمال ذاتها التي يقوم بها الآخرون. وبقليل من الجهد والمثابرة استطعت أن أقرأ أفلاطون وان أحل مسائل المثلثات وأنا أتابع تحليلاً كيماوياً. وكان هناك أمر واحد فقط لم أستطع أن أفعله: وهو ان أسحب الهدف السري المعتم من نفسي وأن أضعه أمامي كما يفعل الآخرون الذين يعرفون تماماً ما يريدونه ـ الاساتذة والمحامون والأطباء، والفنانون، مهما استغرق منهم ذلك ومهما كانت المصاعب والمنافع التي

يحملها هذا القرار في طياته. هذا ما لم أستطع أن أفعله.

ربما كنت سأصير شيئاً مشابهاً ولكن كيف لي أن أعرف؟ وربما كان عليّ أن أتابع بحثي سنوات أخرى دون أن أصبح شيئاً ودون أن أصل إلى هدف. وربما كنت سأصل الى هذا الهدف لكنه سيتكشف عن هدف شرير وخطر ورهيب.

لم أكن أريد الا ان أعيش وفق الدوافع التي تنبع من نفسي الحقيقية، فلم كان ذلك بهذه الصعوبة؟

قمت بمحاولات عديدة لرسم ظهور الحب القوي في احلامي. ولم اوفق. ولو أنني نجحت في ذلك لأرسلت الرسم الى دميان. ولم تكن لديّ فكرة عن مكانه. كنت أعرف فقط اننا مرتبطان ومتواصلان. فمتى سنلتقي من جديد؟

منذ زمن طويل انتهت الاسابيع والشهور الهادئة المتعلقة ببياتريس وفي هذه الأثناء شعرت انني وقد وصلت الى مرفأ آمن، إلى جزيرة السلام. ولكن كما هو الحال دائماً، ما ان أتعود على ظروفي وما أن يبدأ الحلم بمنحي الأمل حتى يذوي ويذبل ويصبح بلا فائدة. وكان من العبث أن آسف بعد الخسارة. كنت أعيش الآن وسط نار التوق غير المتحقق وغير المشبع، نار التوقع المتوتر التي كثيراً ما كانت تجعلني متشنجاً وهائجاً. وكثيراً ما كنت أرى الشبح المحبب لأحلامي بوضوح أكبر من وضوح الحياة ذاتها وأكثر تميزاً من يدي. وكنت أكلمه وأبكي أمامه وألعنه. كنت أناديه أمي وأركع أمامه والدموع تنهمر مني. كنت أناديه حبيبتي وأنا متهيء لقبلته الناضجة الكاملة الإنجاز. كنت أناديه الشيطان والعاهرة ومصاص الدماء والقاتل. كان يدفعني إلى ألطف أحلام الحب وإلى الوقاحة المدمرة. لم يكن هناك ما هو خير وثمين او ما هو شرير ومنحط بالنسبة له.

مررت بذلك الشتاء كله في دوامة داخلية لا متناهية يصعب عليّ وصفها. وكنت، منذ زمن، قد تعودت على وحدتي ـ لم يعد هذا يضايقني؛ كنت أعيش مع دميان، مع الباشق، ومع الشبح الطاغي في قدرته والنابع من أحلامي، والذي كان قدري وحبي. وكان هذا كافياً لتماسكي لأن كل شيء كان موجهاً نحو الاتساع والفراغ ـ نحو أبراكساس. ولكن ما من حلم بين هذه الأحلام، وما من فكرة كانت

تطيعني، ما من شيء كان طوع بناني ولم أكن لأستطيع تلوين أي منها كما أشاء. لقد أتت هذه الأشياء كلها وأخذتني صرت محكوماً من قبلها، وصرت مركبتها.

غير اني كنت مسلحاً بشكل جيد ضد العالم الخارجي. لم أعد خائفاً من الناس وحتى زملائي التلاميذ صاروا يعرفون ذلك ويعاملونني باحترام خفي كثيراً ما كان يبعث البسمة على شفتي. ولو أردت لاستطعت رؤية داخل الكثيرين منهم ولأربكتهم أكثر من مرة. لكنني نادراً ما كنت أحاول ذلك أو انني لم أحاول ذلك أبداً، كنت، دائماً، منشغلاً بنفسي وكنت أشتاق شوقاً حقيقياً لأن أعيش بشكل حقيقي ولو مرة واحدة، ان اعطي شيئاً من نفسي للعالم، أن أدخل في علاقة ومعركة معه. أحياناً وأنا أركض في الشوارع مساء غير قادر على العودة، قبل منتصف الليل بسبب قلقي الدائم، كنت أحس انني، الآن، في هذه اللحظة سيكون عليّ أن أقابل حبيبتي ـ وكأنها تسير لتجتازني عند منعطف الشارع القادم، أو تناديني من أقرب النوافذ وأحياناً أخرى كان هذا كله يبدو مؤلماً بشكل لا يحتمل فأصبح مستعداً للانتحار.

في ذلك الحين وجدت ملجأ غريباً ـ «بالصدفة» كما يقولون ـ على الرغم من إيماني بعدم وجود أشياء كهذه. حين تحتاج إلى شيء ما حاجة ماسة ثم تجده فهذه ليست صدفة ان رغبتك الملحة واندفاعك الحار هما اللذان يقودانك إليه.

مرتين أو ثلاث مرات أثناء سيري كنت أسمع موسيقى الأرغن تأتي من كنيسة صغيرة في طرف البلدة. ولم أكن أتوقف لأستمع. وفي المرة اللاحقة التي مررت بها بهذه الكنيسة سمعت الموسيقى ثانية وعرفت أنها لباخ ذهبت الى الباب فوجدته مقفلاً ولأن الشارع كان خالياً دائماً جلست على حجر قريب من الكنيسة ورددت ياقتي ورحت أستمع لم يكن أرغناً كبيراً لكن نغمته جيدة. وكان في العزف تعبير شخصي جداً وغريب عن الغرض والتركيز مما أعطاه مسحة الصلاة. وشعرت ان عازف الأرغن كان يعرف الكنوز المخبأة في الموسيقى وانه كان يتوسل ويدق بعنف على الباب راجياً ويصارع من أجل هذا الكنز وكأنه حياته معلوماتي

عن الموسيقى من الناحية التقنية محدودة جداً ولكن منذ أيام الطفولة كان لديّ تقبل بالحدس، وكنت احس بالموسيقى وكأنها شيء بدهي في أعماقي.

وعزف العازف شيئاً أكثر حداثة ـ ربما كان لماكس ريغير. كانت الكنيسة غارقة في الظلام وليس فيها إلا شعاع دقيق من الضوء ينبعث من النافذة القريبة إليّ. انتظرت إلى أن توقفت الموسيقى وبعدهارحت أتمشى جيئة وذهاباً إلى أن رأيت العازف يغادر الكنيسة. كان ما يزال شاباً، لكنه أكبر مني، بكتفين مربعتين وجسم قصير. وابتعد مسرعاً بخطوات قوية لكنها على ما يبدو متوترة.

منذ ذلك اليوم صرت أتردد على المكان وأجلس خارج الكنيسة أو أتمشى أمامها خلال ساعات المساء. بل انني ذات يوم وجدت الباب مفتوحاً فجلست قرابة نصف ساعة على أحد المقاعد، وأنا أرتعش من البرد، لكنني كنت سعيداً طالما ان العازف يعزف في العلية. لم أتعرف، فقط، على شخصيته من خلال الموسيقى التي كان يعزفها ـ كل مقطوعة كان يعزفها لها صلة، أو علاقة سرية، بالتي تليها. بل ان كل ما كان يعزفه كان مليئاً بالايمان والتسليم والتفاني، إلا انه لم يكن مؤمناً بطريقة رواد الكنائس والقسس، بل كان مؤمناً بطريقة الحجاج والمتسولين الجوالين في العصور الوسطى، بذلك الاستسلام غير المشروط للشعور الشامل الذي يتخطى كل اعتراف. كما انه كان يعزف الموسيقى التي تعود الى ما قبل باخ والايطاليين القدامى وهذه الموسيقى كلها كانت تقول شيئاً واحداً. كلها كانت تعبر عما في روح الموسيقى: التوق والانصهار الكلي في العالم، والمجاهدة للتحرر، الإصغاء المتحرق لروح المرء المعتمة، والاستسلام النشوان والفضول العميق نحو الإعجاز.

وذات مرة، وأنا أتعقب العازف بعد مغادرته للكنيسة، رأيته يدخل خمارة في طرف البلدة. ولم أستطع مقاومة الرغبة في الدخول وراءه، للمرة الأولى استطعت أن أراه بوضوح. جلس على طاولة منعزلة في الزاوية البعيدة من الحجرة الصغيرة. وكان يرتدي قبعة سوداء من اللباد. وأمامه ابريق من الخمر. وجهه مثل ما توقعته.

كان بشعاً وفيه غلظة، فضولياً وعنيداً. نزوياً ومصمماً، لكن لفمه سمة طفولية ناعمة. رجولته كلها وقوته كلها كانتا متمركزتين في عينيه وجبهته بينما كان الجزء الأسفل من الوجه حساساً وفتياً ومنفلشاً وناعماً بعض الشيء. وكانت الذقن المتحيّرة الوَلَديّة تبدو متناقضة مع الجبهة والعينين ـ وهذا ما احببته عيناه الرماديتان القاتمتان المليئتان بالكبرياء والعداء.

جلست قبالته دون كلام. كنا الزبونين الوحيدين في الخمارة. ألقى عليّ نظرة وكأنه يريد أن يطردني. لكنني لم أتزحزح. حدقت إليه بثبات إلى أن غمغم متنكداً: «ما الذي تحدق إليه؟ هل هناك ما تريده؟».

ـ لا أريد منك شيئاً. لقد أعطيتني الكثير حتى الآن.

وعقد حاجبيه: أنت، اذن، هاو للموسيقى؟! أرى من المقرف ان تكون مولعاً بالموسيقى.

ولم أترك له الفرصة لكي يخيفني.

ـ استمعت إليك كثيراً. هناك في الكنيسة، لكنني لا أريد أن أزعجك. خطر لي انني قد أجد شيئاً ما، شيئاً خاصاً. لا أعرف ما هو في الحقيقة. ولكن لا تلق بالاً إليّ. أستطيع أن أستمع إليك في الكنيسة.

ـ لكنني أقفلها دائماً.

ـ منذ فترة ليست بالبعيدة نسيتها مفتوحة فدخلت وجلست، في العادة كنت أقف بالخارج أو أجلس على حجر.

ـ صحيح! في المرة القادمة تستطيع ان تدخل. في الداخل الجو أكثر دفئاً. كل ما عليك ان تفعله هو ان تقرع الباب. ولكن عليك ان تدق بقوة وليس وأنا أعزف. هات الآن ـ ما الذي كنت تريد أن تقوله لي؟ انك ما تزال شاباً وربما تلميذاً. هل أنت موسيقي؟

ـ لا أنا أحب الاستماع الى الموسيقى، ولكن فقط ذلك النوع الذي تعزفه،

الموسيقى المتحررة تماماً، النوع الذي يجعلك تحس ان إنساناً يهز السماء والجحيم. أعتقد انني أحب هذا النوع من الموسيقى لأنه لا أخلاقي. كل ما عداه أخلاقي وأنا أبحث عما ليس كذلك. الأخلاق تبدو لي دائماً غير محتملة. لا أستطيع التعبير عن الأمر بوضوح ـ هل تعرف انه يجب أن يوجد إله هو في الوقت ذاته إله وشيطان معاً؟ من المفترض ان واحداً كهذا كان موجوداً ذات مرة. لقد سمعت عنه.

دفع الموسيقي قبعته العريضة الى الوراء قليلاً ورفرف بجفنيه وهو يتطلع إليّ ثم أحنى وجهه على الطاولة.

وبهدوء وتوقع سألني: ما اسم الإله الذي ذكرته؟

ـ للأسف أنا لا اعرف أي شيء آخر عنه، عملياً لا أعرف إلا اسمه، إنه يدعى أبراكساس.

تلفت الموسيقي حوله بحذر وكأن شخصاً ما قد يسترق السمع. ثم اقترب مني وقال هامساً: هذا ما ظننته. من أنت؟

ـ تلميذ في المدرسة الثانوية.

- وما الذي يمكن ان تكون قد سمعته عن أبراكساس؟

بالصدفة.

ضرب الطاولة بعنف جعل الحمر ينسكب من كأسه: «بالصدفة! لا تتحدث بهذا الهراء يا فتى! الانسان لا يسمع بأبراكساس بالصدفة. ولا تنسَ ذلك. أنا سأخبرك بالمزيد عنه. ان لدي بعض المعلومات».

وصمت وهو يعيد كرسيه إلى الوراء. وحين تطلعت إليه منتظراً أعطى إشارة بوجهه: «ليس هنا، في وقت آخر. هاك. خذ هذه.» ومد يده الى سترته التي لم يكن قد خلعها وأخرج بعض حبات الكستناء المشوية وألقاها إليّ.

لم أقل شيئاً. أخذتها وأكلتها وشعرت بالراحة.

ـ طيب. همس لي بعد دقيقة. «أين اكتشفته»؟

ولم أتردد في إخباره. بدأت: ذات مرة كنت وحيداً ويائساً. ثم تذكرت

صديقـاً كنت أعرفه قبل عدة سنوات وأشعر انه يعرف أكثر مني بكثير. وكنت قد رسمت شيئاً ما، طائراً يكافح للخروج من الكون. أرسلت إليه هذه اللوحة. وبعد فترة وجـدت ورقة مكتوب عليها هذا الكلام: الطائر يكافح للخروج من البيضة البيضة هي العالم. من يولد عليه أولاً ان يدمر عالماً. الطائر يطير إلى الله. واسم هذا الإله أبراكساس».

لم يجب رحنا نقشر الكستناء ونشرب خمرتنا.

ـ كأساً أخرى؟ سألني

• لا، شكراً لا أحب الشرب.

ضحـك مخيبـاً قليلاً: كمـا تحب، الأمر مختلف بالنسبة لي. أنا سأبقى وتستطيع ان تنصرف اذا شئت.

عندما انضممت اليه في المرة التالية، بعد ان كان قد عزف على الارغن، كان متحفظاً قليلاً قادتي الى حارة، ثم دخلنا بيتاً عتيقاً وموحياً ثم صعدنا الى غرفة كبيرة معتمة قليلاً وباستثناء البيانو لم يكن فيها شيء آخر يوحي بكونه موسيقياً ـ لكن حقيبة كتب كبيرة ومقعداً كانا يعطيان الغرفة جواً شبيهاً بجو الطلبة.

هتفت مندهشاً: ما أكثر الكتب لديك!

ـ قسم منها من مكتبة والدي ـ الذي أعيش في بيته، نعم ايها الشاب. أنا أعيش مع والديّ لكنني لا استطيع أن أعرفك بيهما، زملائي لا يعتبرون مرغوبين جداً في هذا البيت. أنـا الخـروف الأسو د * والدي محترم جداً وهو قس معتبر وواعظ في هذه البلدة. وأنـا، لكي تعـرف كل شيء دفعة واحدة، ابنه الموهوب والواعد والذي ضل، والى حد ما، جن. كنت طالب لاهوت ولكن قبل الامتحانات الرسمية بقليل تركت هذه الكلية المحترمة: أعني، ليس كلياً، ليس في ما يتعلق بدراساتي الخاصة لأنني ماأزال مهتماً بمعرفة الآلهة التي ابتكرها البشر لأنفسهم. ومن ناحية أخرى أنا موسيقي في الوقت الحالي. ويبدو أنني سأحصل على عمل كعازف أرغن في مكان ما. وبعدها سأعود الى خدمة الكنيسة مرة اخرى.

* الشخص المنبوذ في أسرة محترمة.

بمقدار ما كان الضوء الضعيف الصادر عن مصباح الطاولة الصغير يسمح رحت أتطلع الى أغلفة الكتب فأرى فيها العناوين اليونانية واللاتينية والعبرية. وفي الوقت ذاته كان رفيقي قد استلقى على الأرض يشغل نفسه بشيء ما.

بعد قليل ناداني «تعال سنتمرن على شيء من الفلسفة. يعني أبق فمك مغلقاً استلق على بطنك وتأمل.

أشعل عود ثقاب ثم أشعل ورقة وخشبة في الموقد الذي كان يتمدد أمامه. تصاعدت ألسنة اللهب وهو يحرك النار ويغذيها بحرص بالغ. استلقيت الى جانبه على السجادة البالية. وخلال ساعة ظللنا مستلقين على بطنينا صامتين أمام الخشب المتوهج ونحن نراقب اللهب يندفع ويضطرم ثم يخفت ويرتد ويرتعش وينتفض ثم يستكين في النهاية ويتحول الى جمر خامد.

«لم تكن عبادة النار أسخف ما تم اختراعه» قال ذلك متمتماً في إحدى المراحل. وبعدها لم ينبس أي منا بكلمة كنت أحدق في اللهب باستغراق، وأستسلم للأحلام والسكون وأتعرف على أشكال في الدخان وعلى صور في الرماد. مرة خفت. ألقى رفيقي بقطعة من الراتنج على الجمر، فاندفع لهب ضعيف، رأيت فيه الطائر ذا الرأس الباشقي الأصفر. ومن الجمر الخافت راحت خطوط حمراء وذهبية تتقاطع كالشبكة وظهرت بينها حروف أبجدية، وذكريات وجوه، وحيوانات ونباتات وديدان وأفاع. وحين استفقت من حلم يقظتي تطلعت الى رفيقي، وذقنه مستندة على قبضتيه، وهو يحدق مأخوذاً في الرماد باستسلام تام.

قلت بصوت خافت: عليّ أن أذهب الآن.

ـ هيا مع السلامة.

لم ينهض كان المصباح قد انطفأ. وتلمست طريقي عبر الغرف المظلمة والممرات في ذلك البيت العتيق السحري. وما ان صرت في الخارج حتى توقفت وتطلعت إلى واجهة المنزل. نوافذه، كلها، معتمة، وكانت لوحة نحاسية صغيرة

على الباب الأمامي تلمع في الضوء القادم اليها من مصباح الشارع . وعليها قرأت : «بستوريوس، القس بريماريوس».

بعد وصولي الى البيت، وجلوسي في الغرفة الصغيرة بعد العشاء خطر لي انني لم أسمع شيئاً عن أبراكساس أو بستوريوس ـ لم نتبادل إلا القليل من الكلمات لكن الزيارة كانت مُرضية لي . وقد وعد انه في لقائنا التالي سيعزف مقطوعة مختارة من الموسيقى القديمة، باساكاغاليا* على الأرغن لبكستيهود.

وقبل ان أعي الأمر جيداً كان عازف الارغن بستوريوس قد اعطاني الدرس الأول عندما كنا مستقلين على الأرض أمام النار في غرفته المنعزلة القابضة للنفس. لقد كان التحديق في اللهب أساساً بالنسبة لي لاستكناه التوجهات التي كانت لديّ ولم يسبق لها أن روعيت. بالتدريج صار بعضها قابلاً للفهم بالنسبة لي .

وحتى حين كنت ولداً صغيراً كانت لديّ عادة التحديق في الظواهر الطبيعية الغريبة، ليس بهدف مراقبتها بل للاستسلام أمام سحرها وأمام لغتها المشوشة العميقة. جذور الاشجار الطويلة المعقدة، العروق الملونة في الصخور، بقع الزيت الطافية على الماء، الخطوط التي يتكسر الضوء عليها في الزجاج ـ هذه الأشياء كلها كان لديها بالنسبة لي سحر عظيم ذات يوم: الماء والنار بشكل خاص، الدخان والغيوم والغبار، ولكن أكثرها جميعاً الذرات الملونة الهائمة التي تسبح امام عيني حين اغلقهما. بدأت أتذكر هذا كله في الأيام التالية لزيارتي لبستوريوس وذلك لأنني لاحظت ان قوة ومتعة خاصتين، وتكثيفاً في وعيي لنفسي قد استحوذت عليها منذ تلك الأمسية. وأنا مدين بها لهذا التحديق الطويل في النار. لقد كان الأمر مريحاً ومفيداً.

وأضفت إلى التجارب التي ساعدتني في الطريق نحو هدف حياتي الحقيقي هذه التجربة الجديدة: مراقبة هذه الجزئيات. إن الاستسلام للتشكيلات

---

* لحن ايطالي أو اسباني راقص قديم.

اللامنطقية والغريبة بتشوشها التي تقدمها الطبيعة يولد فينا شعوراً من التناغم الداخلي مع القوة المسؤولة عن هذه الظواهر. اننا سرعان ما نسقط ضحايا إغراء التفكير فيها وكأنها من طبيعتنا نحن، من خلقنا نحن، فنرى الحدود التي تفصلنا عن الطبيعة وهي ترتعش وتتلاشى. نصبح متآلفين مع هذه الحالة العقلية التي نعجز فيها عن حسم ما اذا كانت الصور في شبكية العين هي نتيجة انطباعات آتية من الخارج ام من الداخل. ليس هناك مكان مثل هذا نستطيع فيه ان نكتشف، بسهولة وببساطة، إلى أي حد نحن خلاقون وإلى أي حد تساهم أرواحنا في عملية الخلق المستمر للعالم. لأن الألوهية المتوحدة ذاتها فعالة فينا وفي الطبيعة، واذا كان العالم الخارجي سيُدمَّر فإن شخصاً واحداً منا سيكون قادراً على إعادة بنائه؛ بالجبل والجدول، بالشجرة والورقة، بالجذر والزهرة. كل شكل طبيعي كامن فينا ولا نستطيع معرفة جوهره؛ لكنه في أغلب الأحيان يعرفنا بنفسه على انه القدرة على الحب والخلق.

استغرق الأمر سنوات عديدة لكي أتثبت من هذه الملاحظات في كتاب عن ليوناردو دافنشي، الذي يصف لنا الى اي مدى هو مفيد، ومثير للاهتمام الجاد أن نتطلع الى جدار بصق عليه أناس كثيرون. فعند مواجهته لكل لطخة على الجدار المبلل لابد انه قد أحس بما أحسست به مع بستوريوس أمام النار.

في لقائنا الثاني قدم لي عازف الارغن تفسيراً: «اننا، دائماً، نضيّق على أنفسنا عند تحديد شخصيتنا. بشكل عام نحن لا نعتبر جزءاً من شخصيتنا الا ما نستطيع ان نعتبره سمة فردية أو مختلفاً عن المألوف. لكن كلاً منا يشتمل على كل ما يشتمل عليه العالم، وتماماً مثلما ان جسدنا يحتوي على قائمة التطور النسبي (السلالي) التي كان يحتوي عليها جسم السمكة وحتى ما هو أبعد من ذلك؛ كذلك فاننا نحمل في روحنا كل ما كان حياً في نفوس البشر. كل إله وشيطان وجد، سواء عند اليونانيين او الصينيين أو الزولو، موجود فينا، بإمكانية كامنة، كرغبة، كبديل. واذا تعرض الجنس البشري للفناء عن وجه الارض وظل طفل واحد متوسط

الموهبة لم يتلق أية ثقافة فان هذا الولد سوف يكون قادراً على انتاج كل شيء مرة اخرى، من آلهة وشياطين وجنات ووصايا وعهد قديم وجديد.»

ـ نعم. جميل، ولكن ما قيمة الفرد في هذه الحالة؟ لم نستمر في الكفاح طالما ان كل شيء كامل فينا؟

ـ توقف! هتف بستوريوس. هناك فرق هائل بين حمل العالم في داخلنا وبين معرفة ذلك. يستطيع المجنون ان يقول أفكاراً تذكرك بأفلاطون، وتلميذ صغير تقي في معهد اللاهوت يستطيع ان يعيد النظر في التشابهات الميثولوجية الموجودة في الغنوسطيين أو الزارادشتيين. لكنه لا يعرف ذلك، هو شجرة أو حجر، وفي أحسن احواله هو حيوان، طالما انه لا يعي. ولكنه ما ان تنطلق شرارة الوعي الأولى في أعماقه حتى يصبح إنساناً انك لا تعتبر المشاة على قائمتين الذين تعبر بهم في الشارع بشراً لمجرد أنهم يمشون منتصبي القامة ويحملوت أطفالهم تسعة أشهر في بطونهم! من الواضح كم بينهم من أسماك وأغنام وديدان وملائكة، وكم من نمل ونحل، ان كلاً منهم يحمل إمكانية التحول إلى إنسان، ولكن بالتعرف على هذه الامكانيات، ونسبياً بتعليم نفسه كيف يعيها، وفي هذه الحالة فقط تكون الامكانيات ملكه.

هكذا كان التوجه الأساسي لمحادثاتنا. وقلما جابهتني بشيء جديد أو بشيء مدهش. ولكن كل شيء، وحتى أكثر الأمور عادية، كان يشبه الضرب المستمر بمطرقة على النقطة ذاتها في داخلي. وهذه كلها قد ساعدتني على أن أصوغ نفسي. كلها ساعدتني على سلخ طبقات الجلد، على كسر قشرة البيضة. وبعد كل ضربة كنت أرفع رأسي إلى الأعلى قليلاً، وأصبح أكثر حرية بقليل، الى ان دفع طائري الأصفر رأس الطير الجارح الجميل من وسط القشرة المتكسرة للكون الأرضي.

وكثيراً ما كان كل منا يحكي أحلامه للآخر. وكان بيستوريوس يعرف كيف يفسرها. ويرد الى ذهني الآن مثال عليها حلمت بأنني قادر على الطيران ولكن

بطريقة كنت أبدو فيها مقذوفاً في الجو وفاقداً للسيطرة على نفسي. وقد أبهجني شعوري بالطيران، ولكن البهجة تحولت الى خوف عندما رأيت نفسي منقذفاً أعلى فأعلى وأنـا أفقد قوتي شيئاً فشيئاً. وفي تلك اللحظة اكتشفت الاكتشاف المنقذ بأنني أستطيع أن أضبط تحليقي وهبوطي في الطيران بحبس أنفاسي أو اطلاقها.

وكان تعليق بستوريوس كما يلي: الطاقة التي تجعلك تطير هي من ممتلكاتنا الانسانية العظيمة. كل انسان لديه هذه الطاقة. انه الشعور بالارتباط بجذور الطاقة لكن الإنسان سرعان ما يخاف من هذا الشعور. فهو في غاية الخطورة. وهذا ما يجعل الناس يطوون أجنحتهم ويفضلون المشي وينصاعون للقانون. ولكن ليس أنت. انك تتابع طيرانك وانتبه! انك تكتشف انك تدريجياً تسيطر على طيرانك، وانه إضافة الى قوتك العامة الكبيرة التي تدفعك عالياً هناك قوة أخرى صغيرة ودقيقة خاصة بك، انها الأداة، الآلية الموجِّهة. ما أبدع هذا! فلولا هذه القوة لانجذبت الى الأعالي عاجزاً ـ وهذا ما يحدث للمجانين انهم يمتلكون لمعات أعمق من لمعـات الناس الذين يظلون مقيدين إلى الأرض لكن ليس لديهم مفتاح أو آلية موجِّهة ولذا فانهم يندفعون الى اللانهاية. أما أنت يا سنكلير فإنك تسير في الطريق الصحيح كيف؟ ربمـا كنت، نفسـك، لا تعـرف. إنـك تفعلها بأداة جديدة، بالشيء الذي ينظِّم تنفسك. وستدرك الآن كم هي صغيرة «الذاتية» التي تمتلكها روحـك في أعمق أعماقها. فهي لا تخترع هذا المنظم. انه ليس جديداً. لقد استعرته: كان موجوداً منذ آلاف السنين. انه الأداة التي تحافظ بفضله السمكة على توازنهـا ـ المثـانة الهوائية. والحقيقة ان بين الأسماك ما يزال يوجد جنس بدائي غريب تقـوم لديه المثـانـة الهوائية بوظيفة الرئة ويمكن استخدامها كآلية تنفس، وبمعنى آخر تماماً مثل الرئة التي استخدمتها في حلمك ككيس هوائي موازن.

ثم جلب كتـابا في علم الحيوان وجعلني أرى اسم هذا السمك الموجود خارج زمانه وصورته. وبرعشة غريبة شعرت ان هناك عضواً من فترة زمنية سابقة في التطور ما يزال يعيش فيَّ.

٦ ـ يعقوب يصارع

يستحيل عليّ أن أعيد، بإختصار، رواية كل ما قاله لي الموسيقي غريب الأطوار بستوريوس، عن أبراكساس، والأكثر أهمية هو أن ما تعلمته منه كان يمثل خطوة إضافية على الطريق نحو نفسي. في ذلك الحين كنت شاباً غير عادي في الثامنة عشرة، مبكر النضج في اكثر من مجال، وفي مجالات أخرى عديدة غراً وضعيفاً. وحين كنت أقارن نفسي مع أولاد آخرين في مثل سني كنت كثيراً ما أشعر بالفخر والغرور ولكن أظل مخزيّاً ومحبطاً. وكثيراً ما كنت أعتبر نفسي عبقرياً، وبالمقدار ذاته، معتوهاً. لم أنجح في المشاركة في حياة الفتيان الذين هم في عمري، وظلت تستهلكني المخاوف ومحاسبة النفس: كنت منفصلاً تماماً عنهم، ومحروماً من الحياة.

وبستوريوس، الذي كان هو الآخر غريباً كامل النمو، علمني كيف أحافظ على شجاعتي واحترامي لنفسي، فباكتشاف شيء ذي قيمة في ما أقول وفي أحلامي وخيالاتي وأفكاري، وبعدم الاستخفاف بها إطلاقاً وبإعطائها حقاً دائماً صار مثلي الأعلى.

قال: قلت لي إنك تحب الموسيقى لأنها لا أخلاقية. وهذا مقبول لديّ. ولكن في هذه الحالة لا تستطيع ان تسمح لنفسك بأن تكون أخلاقياً. انك لا

تستطيع ان تقارن نفسك بالآخرين. فإذا كانت الطبيعة قد جعلتك خفاشاً فإنك يجب ان لا تحاول ان تصير نعامة. أنت تعتبر نفسك غريباً في بعض الأحيان. وانك تتهم نفسك بانتهاج سبيل مختلف عن معظم الناس.عليك أن تنسى ذلك. حدق في النار، في الغيوم، وحالما تبدأ الأصوات الداخلية بالكلام استسلم لها. لا تسأل منذ البداية عما إذا كان هذا مسموحاً أم مُرضياً لأساتذتك أو أبيك أو إله من الآلهة. إن فعلت ذلك دمرت نفسك. وفي هذه الحالة تصبح مقيداً إلى الأرض، مثل نوع من الخضراوات. اسم إلهنا، يا سنكلير، هو أبراكساس. وهو إله وشيطان ويشتمل على العالمين النوراني والمعتم. ان ابراكساس لا يهمل أياً من أفكارك أو أحلامك. لا تنسى ذلك أبداً. إلا انه سيتخلى عنك حالما تصبح عادياً وبريئاً. سيتركك عندها ويبحث عن وعاء آخر يخمّر أفكاره فيه.

بين أحلامي كلها كان الحلم المعتم عن الحب أصدقَها. كم حلمت انني أمشي تحت الطائر الإنذاري في بيتنا، وانني أريد أن أجذب أمي إلي، وبدلاً منها أجذب المرأة، نصف الذكر، نصف الأم، بين ذراعي، والتي أخاف منها ولكنها تجذبني إليها بعنف. ولم أستطع، أبداً، ان أعترف بهذا الحلم لصديقي. احتفظت به لنفسي حتى بعد ان كنت قد أخبرته بكل شيء آخر. كان هذا الحلم زاويتي، وسري، وملجئي.

حين كانت أحوالي تسوء كنت أطلب من بستوريوس ان يعزف لي الباسا كاغليا لبوكستهود. وعندها أجلس في الكنيسة المعتمة وأنا غارق كلياً في الموسيقى الغريبة في إلفتها وفي أفكارها الذاتية، الموسيقى التي كان يبدو أنها تصغي لنفسها وكانت، في كل مرة، تريحني وتجعلني أكثر استعداداً للالتفات الى أصواتي الداخلية.

أحياناً كنا نبقى حتى بعد انتهاء الموسيقى. كنا نراقب الضوء الضعيف الراشح من النوافذ العالية ذات الأقواس الحادة والذي يتبدد في الكنيسة.

قال بستوريوس: يبدو غريباً انني كنت طالب لاهوت ذات يوم وانني كدت أصير قساً. لكنني لم أرتكب إلا خطأً في الشكل. ما تزال مهمتي وما يزال هدفي

ان أصير قساً. لكنني اكتفيت بسرعة وقدمت نفسي الى يهوه قبل ان أعرف شيئاً عن أبراكساس. صحيح كل دين جميل، الدين هو الروح سواء انخرطت في جماعة مسيحية أو قمت بالحج الى مكة.

وتدخلت: ولكن في هذه الحالة كان من الممكن فعلاً ان تصير قساً.

ـ لا يا سنكلير، كان عليّ عندها أن أكذب. ديننا يُمارس كما لو انه شيء آخر، شيء عقيم تماماً ولو ان السيء قاد إلى الأسوأ لصرت كاثوليكياً. أما قس بروتستانتي فلا ان المؤمنين الأصلاء القلة ـ وأنا أعرف بعضهم ـ يفضلون التفسير الحرفي لم يكن في وسعي، عندها، أن أخبرهم، مثلاً، ان المسيح ليس بالنسبة لي شخصاً بل إنه بطل، أسطورة، صورة ظليلية غريبة رسمت الإنسانية نفسها فيها على جدار الخلود. أما الآخرون الذين يأتون إلى الكنيسة لسماع بعض العبارات الرشيقة البارعة، ولتأدية واجب، وللتأكد من عدم تضييع شيء، وما إلى ذلك فما الذي أستطيع أن أقوله لهم؟ اهديهم؟ أهذا ماتعنيه؟ ولكن ليست لديّ الرغبة في ذلك. القس لا يريد ان يهدي هو يريد، فقط، أن يعيش بين المؤمنين، بين أناس على شاكلته. انه يريد ان يكون الأداة والتعبير عن الشعور الذي منه خلقنا آلهتنا.

وتـوقف قليلاً ثم تابع يا صديقي ان ديننا الجديد، الذي اخترنا له اسم أبراكساس، هو دين جميل. انه أفضل ما لدينا. ولكنه ما يزال فرخاً بزغب. لم ينمُ جناحاه بعد. والدين المعزول ليس ديناً، يجب ان تكون هناك جماعة، يجب ان يكون هناك مذهب وحالات نشوة وأعياد وأسرار.

ثم غرق في ذاكرته وضاع نهائياً داخل نفسه.

وسألته متردداً: ألا يستطيع المرء ان يمارس أسراره مع نفسه أو مع جماعة صغيرة جداً؟

هز رأسه وقال: نعم. يستطيع. لقد كنت أمارسها مع نفسي منذ زمن طويل. ان لديّ مذاهبي الخاصة بي التي يمكن أن أُحكم من أجلها بالسجن سنوات لو

عرف بها أحد. لكنني ما أزال أعرف انها ليست الشيء الصحيح

وبغتة ضربني على كتفي فأجفلت. وقال بحدة: «يا ولد. أنت أيضاً لديك أسـرارك. أنا أعرف انك ترى أحلاماً لا تحكيها لي لا أريد أن أعرفها ولكن أستطيع أن أقول لك: عش هذه الأحلام، العب معها، وابن مذابح لها. انها ليست مثالية بعد. ولكنها تشير إلى الاتجاه الصحيح ومسألة أنني، وأنت، مع قلة آخرين سوف نجدد العالم تظل غير محسومة. ولكن داخل نفوسنا يجب ان نجدده كل يوم والا كنا غير جديين. لا تنس ذلك! انك في الثامنة عشرة يا سنكلير وانت لا تركض وراء العاهرات. يجب ان تكون لديك أحلام عن الحب ويجب ان تكون لديك رغبات. ربما كنت مكوَّناً بطريقة تجعلك تخاف منها. لا تخف. انها أفضل ما لديك. تستـطيع ان تصدقني لقد ضيعت وقتاً طويلاً حين كنت في مثل سنك بانتهاك هذه الأحلام المتعلقة بالحب. يجب ان لا يفعل المرء ذلك. حين تعرف شيئاً ما عن أبراكساس لا تعود قادراً على فعل ذلك، ليس مسموحاً لك أن تخاف من أي شيء، ولا تستطيع ان تعتبر شيئاً مما ترغب فيه الروح محرماً.

قاطعته مرتبكاً: لكنك لا تستطيع ان تفعل كل ما يخطر لك. لا تستطيع ان تقتل شخصاً ما لمجرد انك تمقته.

اقتـرب مني وقـال: في ظروف معينة حتى هذا ممكن. الا انه في معظم الأحيان خطأ وأنا لا أعني ان عليك أن تنفذ كل ما يطرأ على بالك. لا، ولكن يجب ان لا تسيء الى هذه الأفكار، أو تستبعدها بعد أن تكون قد بدت معقولة بتـطهيرها، أو بإخضاعها للأخلاق. وبدل ان تصلب نفسك او غيرك تستطيع أن تشـرب الخمـرة من كأس القـربـان ثم تفكر في لغز التضحية، وحتى دون هذه البـروتوكولات يمكنك التعامل مع نوازعك وما يسمى بالغوايات باحترام ومحبة وعندها ستكشف، هي، عن معانيها ـ وكلها لها معان. وإذا صدف ان عدت إلى التفكير بشيء مجنون فعلاً أو مرتبط بالخطيئة، إذا خطر لك أن تقتل أحداً أو أردت ان ترتكب فعلاً شائناً، يا سنكلير، ففي هذه اللحظة فكر ان أبراكساس هو الذي

يزين لك الأمر. والشخص الذي تريد أن تتخلص منه ليس فلاناً بل هو مجرد مظهر خادع. إذا كرهت شخصاً فانك تكره شيئاً فيه هو جزء منك أنت. وما ليس جزءاً منا لا يزعجنا.

لم يسبق لبستوريوس ان قال لي شيئاً مسني من الأعماق مثل هذا الكلام. لم أستطع أن أرد. ولكن ما كان شديد التأثير عليّ وبأغرب الطرق هو التشابه بين هذا النصح وبين نصح دميان الذي كنت أحمله معي منذ سنوات. لم يكن أحدهما يعرف الآخر لكن كلاً منهما قال لي الكلام ذاته.

وبلطفٍ أضاف بستوريوس: «الأشياء التي نراها هي الأشياء ذاتها التي نحملها في أعماقنا. ولا حقيقة إلا تلك التي نحملها فينا. ولهذا فإن هناك الكثيرين ممن يعيشون حياة غير حقيقية. انهم يعتبرون الصور الخارجية حقائق ولا يسمحون للعالم الموجود في داخلهم ان يكشف عن نفسه. تستطيع ان تكون سعيداً بهذه الطريقة. ولكن ما أن تتعرف على التفسير الآخر. حتى تصبح غير قادر بعدها على السير وراء الحشود. ان طريق الأغلبية يا سنكلير طريق سهل. أما طريقنا فصعب.

بعد أيام قليلة، وبعد ان انتظرت مرتين دون جدوى، التقيته ليلاً والريح الليلية الباردة تدفعه عند أحد المنعطفات، يتعثر بنفسه وهو سكران حتى العياء. ولم أحس برغبة في أن أناديه. مرَّ بي دون أن يراني وهو يحدق أمامه بعينين ذاهلتين متألقتين وكأنه يلحق بشيء غامض يدعوه من المجهول. تبعته طوال الطريق وكان يندفع إلى الأمام، وكأن خيطاً غير مرئي يشده، بمشية متوترة، ولكنها حرة، كمشية الشبح. وعدتُ بحزن الى البيت والى أحلامي غير المتحققة.

هكذا، اذن، يجدد العالم في داخله! وفي اللحظة ذاتها، التي خطرت لي فيها الفكرة، شعرت بأنها فكرة حقيرة مؤلمة أخلاقياً. ما الذي أعرفه عن أحلامه؟ ربما كان يسير، في نشوته، على طريق أكثر ثباتاً ووضوحاً من طريقي في أحلامي.

وكنت قد لاحظت عدة مرات في الاستراحات بين الدروس ان أحد الزملاء، ممن لم أكن قد أوليته أي اهتمام، يهتم بي ويتابعني. كان ولداً نحيلاً ضعيف المظهر ذا شعر أشقر محمراً، وكانت نظرة عينيه وسلوكه غير عاديين، وذات مساء

وفيما كنت عائداً الى البيت رأيته يستلقي في الزقاق بانتظاري. تركني أعبره ثم تبعني حتى وقف عندما وقفت أمام المدخل.

سألته أتريد مني شيئاً؟

فقال بخجل: لا أريد إلا ان اتحدث معك مرة. فهل تتلطف بأن تمشي معي قليلاً؟

تبعته وأنا أحس انه مستثار ومليء بالتوقعات. كانت يداه ترتجفان.

سألني بغتة: هل أنت من الروحانيين؟

قلت له ضاحكاً: لا يا كنوير. ولا بأي شكل. ما الذي يدعوك إلى الاعتقاد بذلك؟

ـ هل أنت، اذن، ثيوصوفي؟*

ـ أبـداً.

ـ لا تكن متحفـظاً بهذا المقدار. أستطيع أن أحس بشيء خاص لديك. هناك نظرة في عينيك أنا واثق من انك تتصل بالأرواح. وأنا لا أسأل من قبيل الفضول المجاني يا سنكلير. ابداً. أنا، نفسي، باحث. وأنا وحيد جداً.

قلت له مشجعاً: هيا. تابع. احكِ لي. أنا لا أعرف الكثير عن الأرواح. فأنا أعيش في أحلامي. ان الآخرين يعيشون في الأحلام ولكن ليس في أحلامهم. وهذا هو الفارق.

قال هامساً: نعم. ربما كان هذا هو الأمر. لا يهم نوع الأحلام التي تعيش فيها ـ هل سمعت بالسحر الأبيض؟

وكان عليّ أن أقول لا

ـ أعني حين تتعلم السيطرة على الذات. تستطيع ان تصير مخلداً وأن تسحر الآخرين. هل سبق لك ان أجريت بعض التجارب أو التمرينات؟

وبعد أن سألته عن ماهية هذه «التمرينات» صار أكثر تكتماً وإلى ان هممت

---

* الثيوصوفية: معرفة الله عن طريق الكشف الصوفي أو التأمل الفلسفي. ـ المورد.

بالعودة. وعندها أخبرني بكل شيء.

ـ مثلاً، حين أريد أن أنام، أو أريد أن أركّز على شي ما أقوم بواحد من هذه التمرينات. أفكر بشيء ما، بكلمة مثلاً، أو باسم، أو بمسألة حسابية. ثم أستغرق في هذه المسألة قدر ما أستطيع أحاول أن أتصورها إلى أن أحس بها فعلاً داخل رأسي ثم أفكر بها من خلال حلقي، وهكذا، إلى أن أمتلىء بها تماماً. ثم أصبح متيناً وكأنني قد تحولت الى حجر فلا يعود في وسع أي شيء أن يحول انتباهي.

كونت فكرة غامضة عما يقصده. إلا انني كنت واثقاً من ان هناك شيئاً ما غير ذلك يزعجه فقد كان قلقاً ومستثاراً بشكل غريب، وحاولت أن أسّهل عليه الكلام، ولم يطل به الأمر فأعرب عن نيته الحقيقية.

سأل بامتعاض: أنت عفيف. أليس كذلك؟

ـ ماذا تعني؟ جنسياً؟

ـ نعم. لقد ظللت عفيفاً طوال سنتين ـ منذ ان اكتشفت مسألة التمرينات. لقد ظللت فاسداً حتى ذلك الحين. أنت تعرف ما أعنيه. ـ يعني أنت. ألم يسبق لك ان كنت مع إمرأة؟

قلت لا لم أجد المرأة الملائمة.

ـ ولكن إذا وجدت المرأة وأحسست انها المرأة الملائمة فهل كنت ستنام معها؟

ـ بالطبع ـ إن لم يكن لديها مانع. قلت ذلك بشيء من السخرية والهزء.

ـ أنت تسير على الطريق الخاطىء. لن تستطيع ترويض طاقاتك الداخلية إلا إذا كنت عفيفاً تماماً. ولقد فعلت ذلك ـ طوال سنتين كاملتين؛ سنتين وما يزيد عن الشهر! الأمر في غاية الصعوبة. أحس أحياناً أنني لا أستطيع الصمود أطول من ذلك.

ـ اسمع يا كنوير. لا أعتقد أن العفة بهذا القدر من الأهمية.

قال معترضاً: أعرف. هذا ما يقولونه جميعاً. ولكنني لم أتوقع ان تقول الكلام ذاته! إن أردت أن تسمو، وتسلك الطريق الروحي، فإن عليك ان تظل

طاهراً تماماً.
- طيب كن طاهراً إذن. لكنني لا أفهم لماذا يعتبر شخص ما أكثر طهارة من غيره إذا ما قمع رغباته الجنسية. أم أنك قادر على مسح الجنس من أفكارك واحلامك كلها؟

تطلع إليّ بنظرة يائسة: لا وهذا هو الموضوع. يا إلهي. ولكن يجب أن أفعل ذلك، تأتيني أحلام في الليل لا أستطيع حتى أن أحكيها لنفسي. أحلام مرعبة.

تذكرت ما كان بستوريوس قد قاله لي. ولكن على الرغم من موافقتي على أفكاره لم أستطع تقبلها. ولم أستطع أن أقدم نصيحة غير نابعة من خبرتي وأنا غير قادر على تنفيذها. صمتُّ. وأحسست بالمهانة لعجزي عن تقديم نصيحة لشخص يطلبها مني.

وأنَّ كنوير قربي قائلا: لقد جربت كل شيء. فعلت كل ما يمكن فعله. الماء البارد، الثلج، التمرينات الجسدية والركض ولكن لم ينفعني شيء منها. في كل ليلة أستيقظ من أحلام ليس مسموحاً لي بالتفكير فيها - والجانب المرعب منها هو انني خلال ذلك صرت، بالتدريج، أنسى كل شيء روحاني تعلمته، انني لم أعد أنجح تماماً في التركيز أو في تنويم نفسي. كثيراً ما أستلقي متيقظاً طوال الليل. لا يمكن ان يستمر الأمر على هذا الحال أكثر من ذلك. فان لم أستطع كسب المعركة، اذا استسلمت في النهاية وصرت غير طاهر مرة أخرى فإنني سأكون شريراً أكثر من جميع الذين لم يخوضوا معركة. ألا تفهم ما أعنيه؟

هززت رأسي ولم أستطع ان أعلق بشيء. بدأ حديثه يثير مللي وأزعجني ان حاجته الواضحة ويأسه لن يتركا إنطباعاً أعمق لديّ. وكان الشعور الوحيد لديّ: لا أستطيع أن أساعدك.

وفي النهاية سألني وهو حزين ومرهق: أنت إذن لا تعرف شيئاً؟ لا شيء أبداً؟ ولكن لا بد من وجود حل. كيف تواجه، أنت، الأمر؟

- لا أستطيع أن أقول لك شيئاً يا كنوير. نحن لا نستطيع مساعدة أي

إنسان. ولم يساعدني أحد أيضاً. يجب أن تسوي المسألة مع نفسك. وبعدها عليك أن تفعل ما يتوق إليه قلبك في داخلك. لا حل غير هذا. وان لم تستطع ان تجده بنفسك فإنك لن تجد أرواحاً أيضاً.

تطلع الزميل القصير إليّ، منزعجاً وخالياً من الكلام بشكل مفاجىء. ثم التمعت عيناه بالكراهية. فكشر وزعق: يا لك من قديس ظريف! أنت، نفسك، منحرف، كما أرى. انك تتظاهر بالحكمة لكنك، سراً، تتعلق بالقذارة ذاتها التي نتعلق بها نحن. أنت خنزير. خنزير مثلي نحن، كلنا، خنازير.

ذهبت وتركته واقفاً. تبعني خطوتين أو ثلاث خطوات ثم التفت وركض مبتعداً. شعرت. أثار قرفي شعوري بالشفقة والامتعاض. ولم أتخلص من هذا الشعور إلا بعد أن أحطت نفسي، في غرفتي، بعدد من اللوحات واستسلمت لأحلامي. وفوراً عاد الحلم، الحلم عن مدخل البيت والشعار، عن الام والمرأة الغريبة، واستطعت رؤية سماتها بدقة إلى درجة أنني بدأت أرسم صورتها في ذلك المساء ذاته.

عندما اكتملت اللوحة، بعد شغل عدة أيام، وكانت قد تشكلت ملامحها بما يشبه الحلم في جهد خمس عشرة دقيقة، علقتها على الجدار وقربت منها مصباح المكتب، ثم وقفت أمامها وكأنني أقف أمام شبح عليّ أن أكافحه حتى النهاية. كان وجهاً شبيهاً بالوجه السابق - وبعض قسماته تشبهني أنا. كان واضحاً أن إحدى العينين أعلى من الأخرى، والنظرة تمر من فوقي وتتجاوزني، غارقة في ذاتها وثابتة ومليئة بالكارثة.

وقفت أمامها وقد بدأت، في داخلي، أتجمد نتيجة جهدي. سألت اللوحة وأنّبتها ومارست الجنس معها وصليت لها. سميتها أماً وسميتها عاهرة وكلبة وسميتها أبراكساس. وخطرت لي كلمات سبق ان قالها بستوريوس - أمْ دميان؟ - وسط لعناتي. ولم أستطع أن أتذكر من كان قد قالها لكنني أحسست أنني أستطيع أن أسمعها من جديد. كانت كلمات عن صراع يعقوب مع ملاك الرب وقوله: «لن أدعك تذهب قبل ان تباركني».

كان الوجه المرسوم، تحت ضوء المصباح، يتغير مع كل فقرة ـ يصير مضاء ونيراً، ثم يصير معتماً ومكتئباً، يغمض جفنيه على عينين ميتتين ثم يفتحهما من جديد فتلتمع نظراته المضيئة. كان امرأة ورجلاً وفتاة وطفلاً وحيواناً، ثم ذاب في مساحة صغيرة من الألوان ثم اتسع وتميز من جديد. وأخيراً، واستجابة لدافع قوي، أغمضت عيني فرأيت الصورة في داخلي، أقوى وأشد من قبل. أردت أن أركع أمامها لكنها كانت جزءاً فعلياً مني فلم أستطع فصلها عن نفسي وكأنها قد تحولت إلى ذاتي.

ثم سمعت زئيراً ثقيلاً وكئيباً وكأنني أمام عاصفة ربيعية وارتعدت تحت وطأة شعور جديد عصي على الوصف نابع من تجربة مخيفة. تلامعت النجوم أمامي ثم خبت: ذكريات تعود إلى الأيام الأولى المنسية من طفولتي، نعم ذكريات تعود الى ما قبل وجودي، في المراحل الأولى من التطور، تجمعت محتشدة أمامي. ولكن هذه الذكريات التي بدا عليها انها تعيد لي كل سر في حياتي لم تتوقف عند الماضي والحاضر. بل تجاوزتهما وكشفت لي عن المستقبل، اقتلعتني من الحاضر وزجتني في اشكال جديدة للحياة كانت صورها تلمع واضحة بشكل باهر ـ ولم أستطع تذكر واحد منها فيما بعد.

أثناء الليل كنت أستيقظ من نوم عميق، وأنا ماأزال مرتدياً ملابسي، ثم أتربع على السرير بشكل منحرف. أشعل المصباح وأحس أن عليّ أن أسترجع شيئاً هاماً ولكنني لا أستطيع تذكر أي شيء مما جرى في الساعة التي مضت. وتدريجياً بدأت أتلمس طريقي. بحثت عن اللوحة ـ لم تكن على الجدار ولا على الطاولة. ثم فكرت انني أستطيع ان اتذكر بصعوبة بأنني قد أحرقتها. أم انه حدث في حلمي انني أحرقتها في راحة يدي ثم ابتلعت رمادها؟!

سيطر عليَّ قلق شديد. لبست قبعة وخرجت من البيت عبر الزقاق وكأنني مجبر على ذلك، وركضت في شوارع وساحات لا تحصى وكأن جنوناً يدفعني، وتوقفت للإصغاء قليلاً أمام كنيسة صديقي المعتمة. ثم بحثت، وبحثت بلهفة شديدة ـ دون أن أعرف عم أبحث. مررت بساحة تضم مباني ما تزال بعض نوافذها

مضاءة. بعد ذلك وصلت الى منطقة تحتوي على بيوت حديثة البناء، وأكوام الآجر في كل مكان وقد غطى الثلج الرمادي جوانب منها. وتذكرت ـ وأنا مندفع تحت سيطرة قوة غريبة وكأنني أمشي في نومي عبر الشوارع ـ البناء الجديد في بلدتي الذي أخذني إليه معذبي، كرومر، لتقديم الدفعة الأولى له. كان مبنى مشابه أمامي في هذه الليلة الشهباء، ومدخله المعتم فاغر. جذبني إلى داخله: ولرغبتي في الهرب رحت أتعثر فوق الرمل والركام. ولكن القوة التي تسيرني كانت أقوى فأجبرت على الدخول.

بين القضبان والحجارة، رحت أترنح وأنا أدخل غرفة موحشة تفوح رائحة الرطوبة والبرد فيها من الاسمنت الحديث. كانت هناك كومة من الرمل، وبقعة مضاءة بشكل خفيف وما تبقى منها فمعتم.

وانطلق صوت مذعور يناديني: يا إلهي. سنكلير. من أين جئت؟

وانتصب من الظلمة شكل إلى جانبي، شخص صغير نحيل، مثل شبح؛ وحتى في حالة الذعر التي كنت فيها عرفت زميلي كنوير.

سألني وهو يكاد يجن من الاثارة: كيف صدف أن جئت الى هنا؟ كيف استطعت العثور عليّ؟

ولم أفهم.

قلت وأنا مذهول: لم أكن أبحث عنك. تطلبت مني كل كلمة جهداً، وخرجت الكلمات متعثرة عبر شفتين ميتتين.

حدق إليّ: ألم تكن تبحث عني؟

ـ لا لقد شدني شيء ما هل ناديتني؟ لا بد انك ناديتني. وبالمناسبة ما الذي تفعله هنا؟ الدنيا ليل.

احتضنني متشنجاً بذراعه النحيلة: نعم، ليل، سيبزغ الفجر قريباً. هل تستطيع ان تغفر لي؟

ـ لماذا أغفر لك؟
ـ لقد كنت شريراً.
الآن، فقط، تذكرت حديثنا أكان ذلك قبل أربعة أيام أم خمسة؟ بدا ان عمراً بأكمله قد مرّ منذ ذلك الحين. ولكن بغتة عرفت كل شيء. ليس فقط ما حدث بيننا؛ بل أيضاً سبب مجيئي إلى هنا وما أراد كنوير ان يفعله هنا

ـ أكنت تريد ان تنتحر يا كنوير؟
ارتعش بفعل البرد والخوف.
ـ نعم أردت ذلك. ولا أعرف ما إذا كنت سأستطيع. كنت أريد الانتظار حتى الصباح.
سحبته الى الخارج. كانت الأشعة الأولى على الأفق تخفق باردة وقلقة في الفجر الأشهب.

ظللت أجر الولد من ذراعه لفترة. وسمعت نفسي وأنا أقول: «عد إلى البيت الآن ولا تنطق بكلمة أمام إنسان. كنت تسير في الطريق الخاطىء. نحن لسنا خنازير كما يبدو عليك انك تظن، نحن بشر، اننا نخلق الآلهة ونتصارع معها، وهي تباركنا.
تابعنا سيرنا ثم افترقنا دون ان ننطق بكلمة اخرى. وعندما وصلت الى البيت كان الوقت نهاراً.
كان أفضل ما جنيته من بقائي عدة أسابيع في المدرسة هو الساعات التي قضيتها مع بستوريوس. مع الأرغن، أو أمام ناره. كنا ندرس نصاً يونانياً عن أبراكساس وقرأ لي مقاطع من ترجمة للفيدا* وعلمني كيف ألفظ كلمة «أوم»*. ولكن هذه المسائل الخفية لم تكن هي التي تغذيني داخلياً. ما كان ينعشني ويقويني هو التقدم الذي أحرزته في اكتشاف نفسي، والثقة المتزايدة في أحلامي، وأفكاري وتطلعاتي، والمعرفة المتزايدة بالقوة التي كنت أمتلكها في داخلي.

---

* فيدا كتب الهندوس المقدسة أوم طقس وحالة من الديانة الهندوسية لمزيد من التفاصيل ارجع الى رواية سدهارتا (من منشورات الدار).

كنت ويستوريوس يفهم كل منا الآخر بكل صيغة ممكنة، كل ما كان عليّ أن أفعله هو أن أفكر به فأكون واثقاً انه ـ هو أو رسالة منه ـ سيصل. كنت أستطيع أن أطلب منه أي شيء، مثلما كنت أسأل دميان، ودون أن يكون، بالضرورة، موجوداً بلحمه ودمه؛ كل ما كان عليّ أن أفعله هو أن أتصوره ثم أوجه أسئلتي إليه بصيغة أفكار مركزة. وبعدها فان الجهد النفسي المبذول كله في السؤال يعود إليّ كجواب. ولكن لم يكن شخص بستوريوس أو ماكس دميان الذي كنت أستحضره وأخاطبه، بل هو الصورة التي كنت أحلم بها وكنت قد رسمتها، نصف الذكر، نصف الأنثى، صورة الحلم عن شيطاني. هذا الكائن لم يعد مقصوراً على أحلامي، ولم يعد مقتصراً على التحديد في ورقة بل صار يعيش في داخلي كمثال لنفسي وتكثيف لها.

أما العلاقة التي أقامها كنوير المزمع على الانتحار معي فقد كانت غريبة، وأحياناً مضحكة. منذ تلك الليلة التي أُرسلت إليه فيها، تعلق بي تعلق كلب أو خادم أمين. وصار يبذل كل جهد لكي يجعل حياته تجاري حياتي. وصار يطيعني طاعة عمياء. كان يأتي إليّ بأغرب الأسئلة والطلبات. وهو يريد أن يرى أرواحاً وأن يتعلم القبلانية** ولم يكن ليصدقني حين أؤكد له جهلي المطبق بهذه الأمور كلها. كان يظن انه لا وجود لشيء خارج قدراتي. ولكن ما يثير الاستغراب انه كثيراً ما كان يأتي إليّ بأسئلته المحيرة والغبية في الوقت الذي أكون فيه، أنا، في مواجهة إشكال من إشكالاتي. وكانت أفكاره الخيالية وطلباته كثيراً ما تقدم لي المفتاح ونقطة الانطلاق للوصول الى حل. وكثيراً ما كان يصبح مزعجاً فأطرده بحزم. إلا إنني كنت أخمن انه، هو أيضاً، قد أُرسِلَ إليّ. ومنه كان يعود إليّ ما سبق أن منحته إياه وبشكل مضاعف. هو أيضاً كان قائداً لي ـ أو على الأقل كان مقر إرشاد. وقد علمتني الكتب السرية التي كان يجلبها لي والتي كان يبحث فيها عن خلاصه أكثر مما كنت أدرك في ذلك الحين.

** فلسفة دينية سرية عن أحبار اليهود وبعض نصارى العصر الوسيط. ـ المورد.

فيما بعد انسل كنوير من حياتي دون أن أنتبه له. لم نعد نتصارع أو نتنازع ولم يعد هناك سبب لذلك. على عكس بستوريوس، الذي كنت ما أزال أشترك معه في تجربة غريبة في الأيام الأخيرة من تواجدي في المدرسة.

حتى أكثر الناس مسالمة، لا بد لهم، في مناسبة أو أكثر في مجرى حياتهم، ان يصطدموا في نزاع مع أجمل فضائل التقوى والعرفان. كنا مستلقيين أمام النار فيما كان يستطرد في حديثه عن أسرار الدين وأشكاله، التي كان يدرسها والتي كانت قدراتها على التأثير في المستقبل تهيمن عليه. كان ذلك كله يبدو لي سخيفاً وانتقائياً وليس مما له أهمية فعلية؛ كان فيه شيء ذو نكهة تدريسية. وبدا مثل بحث ممل بين مخلفات العوالم السالفة. وبغتة أحسست بنفور من أسلوبه كله، ومن هذا النمط من الميثولوجيات، لعبة الموزاييك هذه التي يلعبها بنمط اعتقادي من الدرجة الثانية.

- بستوريوس. قلت بغتة بشيء من الكراهية التي فاجأته وأخافته معاً. عليك أن تحكي لي في مرة قادمة عن أحد أحلامك؛ عن حلم حقيقي، حلم رأيته ذات ليلة. أما ما تحكيه لي كله فهو شيء أثري.

لم يسبق له ان سمعني أتحدث هكذا. وفي اللحظة ذاتها أدركت بشيء من الخجل والرهبة ان السهم الذي أطلقته عليه، والذي اخترق قلبه، قد أُخذ من مستودع أسلحته هو: إنني أقذفه بالتوبيخات التي سبق أن وجهها لنفسه بشيء من الهزء.

صمت فوراً. تطلعت إليه والخوف يملأ قلبي ورأيته وهو يشحب شحوباً رهيباً.

بعد صمت طويل مشحون وضع قطعة حطب جديدة في النار ثم قال بصوت هادىء: معك حق يا سنكلير. أنت ولد بارع وذكي. سأوفر عليك الجانب الأثري بعد الآن. كان يتحدث بهدوء شديد. ولكن كان من الواضح أنه قد جُرح. ما الذي فعلته؟

كنت أريد أن أقـول له شيئاً ما مشجعاً، وأن أنشد غفرانه، وأؤكد له حبي وامتناني العميق. وجاءت الى بالي كلمات مؤثرة ـ لكنني لم أستطع النطق بها. ظللت مستلقياً وأنا أحدق في النار صامتاً. واحتفظ، هو الآخر، بصمته. ولذا ظللنا مستلقيين والنار تخبو، ومع كل لهب يخمد كنت أشعر بشيء جميل وعزيز يحترق ويتلاشى الى الأبد ويصبح كأنه لم يكن.

وأخيراً قلت بصوت مقسور ومتسرع: أخشى أنك أسأت فهمي وسقطت الكلمـات البليدة الخـالية من المعنى من شفتي بآلية وكأنني كنت أقرأ في مجلة مسلسلات قصصية.

قال بستوريوس بنعومة: «أفهم الأمر تماماً، انت على حق». وانتظرت فتابع ببطء: «بمقدار ما يستطيع أن يكون إنسان ما محقاً في موقفه ضد آخر».

لا لا أنا مخطىء. زعق بذلك صوت في داخلي ـ لكنني لم أستطع أن أقـول شيئـاً. أدركت أنني بكلمـاتي القليلة قد وضعت إصبعي على ضعفـه الجوهري، على بلواه وجرحه. لقد لمست النقطة التي يشك بنفسه فيها أكثر من أي شيء آخر. كان مثله الأعلى «أثرياً». كان يبحث في الماضي. كان رومانتيكياً. وبغتـة أدركت من أعمـاقي ان ما كان عليه بَستوريوس وما كان قد أعطاه لي هو بالضبط ما لا يستطيع ان يكونه وما لا يستطيع ان يمنحه لنفسه. لقد سار بي في طريق سيتخطاه ويتجاوزه، حتى هو القائد، ويتركه في المؤخرة.

الله وحده يعلم كيف يصدف أن يقول إنسان ما شيئاً ما مثل هذا. لم أكن قد قصدت أن يكون الأمر بهذه الكراهية؛ لكنني لم يكن لديّ أدنى تصور عن الخراب الـذي سأحـدثـه. تلفـظت بشيء لم أكن أعي مضمـونه لحظة التلفظ به. لقد استسلمت لدافـع ضعيف وفيه شيء من الـذكاء ولكنه حاقد. وصار هذا الدافع قدري. لقد اقترفت، بتفاهة واستهتار، فعلاً وحشياً، اعتبره، هو، حُكْماً.

كم تمنيت لحـظتها لو انه غضب ودافع عن نفسه ووبخني. لكنه لم يقم بشيء من ذلك وكان عليّ أن أقوم بذلك كله بنفسي. ولعله كان سيبتسم لو انه استطاع ـ وبما انه وجد ذلك مستحيلاً فقد كان هذا البرهان الأكيد على عمق الجرح

الذي تسببتُ له به.

وبتقبله بهذا الهدوء لتلك الضربة مني، وأنا تلميذه الطائش الناكر للجميل، وبتمسكه بالصمت واعترافه بأنني كنت محقاً، ويقبوله لكلماتي على انها قدره، جعلني أشمئز من نفسي فزاد فيّ طيشي أكثر مما كان عليه. حين ضربت كنت اتوقع أنني أضرب رجلاً قوياً مسلحاً ـ وتبين انه مخلوق هادىء سلبي عاجز عن الدفاع عن نفسه مستعد للاستسلام دون اعتراض.

ظل وقتاً طويلاً أمام النار المتضائلة التي كان كل شيء مضيء أو كل هيئة ذاوية فيها يذكرني بساعاتنا الغنية معاً مما يزيدفي وعيي لذنبي وفي حجم دَيْني لبستوريوس. وأخيراً لم أعد أستطيع الاحتمال. نهضت وغادرت المكان. وتوقفت طويلاً أمام باب غرفته، وكذلك في الممر المعتم، وأكثر من ذلك أمام المنزل منتظراً أن أسمع ما إذا كان سيلحق بي. ثم التفتُّ لأمضي فمشيت ساعات في البلدة، وفي ضواحيها، وحدائقها وغاباتها حتى حل المساء. وخلال مسيري هذا أحسست للمرة الأولى بعلامة قابيل على جبهتي

احتجت إلى وقت لكي أستطيع التفكير بوضوح فيما حدث. في البدء كانت أفكاري مليئة باللوم، وبالرغبة في الدفاع عن بستوريوس. ولكنها كانت، كلها، تتحول الى الاتجاه المعاكس لنيتي أكثر من ألف مرة كنت فيها على استعداد للأسف والتراجع عن أقوالي الطائشة ـ ولكنها الحقيقة. الآن فقط صرت أستطيع أن أفهم بستوريوس فهماً تاماً وأن أعيد بناء حلمه كاملاً أمامي كان حلمه أن يكون كاهناً، وأن يدعو للدين الجديد، وان يقدم صِيغاً جديدة للقوة الداخلية، للحب، للعبادة ولإقامة رموز جديدة، ولكن لم تكن تلك قوته ولم تكن تلك مهمته. لقد ماطل طويلاً في الماضي وكانت معرفته بالماضي شديدة الدقة. كان يعرف الكثير عن مصر والهند وعن مترا وأبراكساس. وكان حبه متعلقاً بصور سبق للأرض ان رأتها. إلا انه في أعماقه كان يدرك ان الجديد يجب ان يكون جديداً ومختلفاً بحق، وانه يجب ان ينبع من تربة جديدة ولا يمكن استخلاصه من المتاحف

والمكتبـات. وكـانت مهمته أن يقود الناس الى نفوسهم مثلما قادني. أما تقديم الآلهة الجديدة التي لا تشبه ما سبقها فلم يكن هذا من شأنه.

عند هذه النقطة تأجج في داخلي ادراك جديد: لكل إنسان «مهمة» خاصة به. لكن ما من مهمة يستطيع المرء أن يختارها وان يحددها وان ينجزها كما يرغب. كان من الخـطأ البحث عن آلهـة جدد، ومن الخطأ الفادح محاولة تقديم شيء للعالم. ان على المتنور واجباً واحداً ـ ان يبحث عن طريق يوصلك إلى نفسه، وأن يصل إلى اليقين الداخلي، وان يتلمس طريقه إلى الأمام، وأينما أدى به ذلك. لقد هزني هذا الادراك بعمق؛ فهـو ثمـرة هذه التجـربـة. وكثيراً ما تأملت صوراً من المستقبل، وحلمت بأدوار قد أرشح لها، كالشاعر أو النبي، أو الرسام أو ما يشبه ذلك.

وكان هذا كله عبثاً. إذ انني لم أخلق لكتابة القصائد أو للوعظ أو للرسم. لا أنا ولا غيري. هذا كله يأتي بالصدفة. لكل إنسان مهمة أصيلة واحدة ـ هي العثور على طريق نحو نفسه. قد ينتهي به الأمر ان يصبح شاعراً أو مجنوناً، نبياً أو مجرماً ـ فهـذا ليس من شأنه ولا مبرر إطلاقاً للاهتمام به. ان وظيفته هي ان يكتشف مصيره ـ ليس المصير الاعتباطي التعسفي ـ وان يعيشه كاملاً وبحزم مع نفسه. أما ما عداه فهو الوجود المحتمل، محاولة تملص، عودة هاربة إلى مُثُل الجماهير، مصالحة وخوف المرء من داخله. وبرزت الرؤية الجديدة أمامي، وأومضت مئات المرات، ربما كانت قد عُبِّر عنها من قبل ولكنها تُختبر وتعاش الآن للمرة الأولى من قبلي، لقد كنت ذا خبرة فيما يتعلق بالطبيعـة، ومقامراً وسط المجهول، وربما من أجل غرض جديد، وربما من أجل لا شيء. وكانت مهمتي الأولى هي السماح لهذه اللعبة المتعلقة بالأعماق البدائية ان تأخذ مجراها، وان تمارس ارادتها في داخلي وان تحولها الى ارادة لي، هذا أو لا شيء.

كنت أحس، حتى الآن، بقدر كبير من الوحشة أما الآن فقد كانت الوحشة اعمق ولا مفر منها.

لم أبذل أي جهد للتصالح مع بستوريوس. ظللنا صديقين ولكن العلاقة تغيرت. لكن هذا كان ما لم نعد إلى لمسه إلا مرة واحدة. والحقيقة ان بستوريوس، نفسه، هو الذي فعل ذلك. قال:

أنت تعرف ان لديّ الرغبة في أن أصير كاهناً ولكنني كنت أريد، بكل جوارحي، أن أصير كاهن الدين الجديد الذي لنا، أنا وأنت، علاقات حميمة به. ولكن هذا الدور لن يكون دوري بعد الآن - إنني أدرك ذلك، وحتى دون الاعتراف بذلك أمام نفسي، كنت قد عرفت به منذ وقت طويل. ولذا فانني سأقوم بواجبات كهنوتية بديلة أخرى، ربما على الأرغن، وربما بطريقة أخرى. ولكن يجب ان تظل حولي دائماً أشياء أحس بأنها جميلة ومقدسة، موسيقى الأرغن والقصص الغامضة، الرموز والأساطير، إنني أحتاج اليها ولا استطيع أن امتنع عنها. أحياناً، يا سنكلير، أعرف انه يجب أن لا تكون لديّ رغبات من هذا النوع وأنها ضعف وترف. وربما كان من السماحة والعدل أكثر فيما لو انني وضعت نفسي دون تحفظ تحت تصرف القدر. لكنني لا أستطيع، إنني عاجز عن أن أفعل ذلك. ربما استطعت، أنت، أن تقوم بذلك ذات يوم. انه لأمر صعب. وهو الأمر الصعب الوحيد فعلاً. طالما حلمت بذلك. لكنني لا أستطيع. ان الفكرة تملأني بالرهبة. إنني أعجز عن الوقوف هكذا، عارياً ووحيداً. أنا، أيضاً، مخلوق مسكين وضعيف يحتاج إلى الدفء والطعام وبين حين وآخر الى راحة الرفقة البشرية. ان الشخص الذي لا يبحث إلا عن مصيره ثم لا يعود لديه رفاق، يقف وحيداً تماماً ولا يبقى حوله إلا الفراغ الكوني البارد. وهذا هو يسوع في حديقة الجثمانية كما تعرف. لقد كان هناك شهداء تقبلوا بسرور ان يعلقوا على الصلبان. ولكن حتى هؤلاء لم يكونوا أبطالاً، لم يتحرروا، فحتى هؤلاء كانوا يريدون أمراً هم متعلقون به ومتعودون عليه - إن لديهم نماذج، ومثلاً عليا. ولكن الإنسان الذي يبحث عن مصيره ليس لديه نماذج أو مُثل، ليس لديه شيء عزيز عليه أو يمكن أن يعزيه ويعوضه. وهذا هو الطريق الذي على المرء ان

يسلكه فعلاً. الذين هم مثلك ومثلي وحيدون جداً ولكن ما زال لدى كل منا زميله الآخر. ان لدينا الرضا السري عن كوننا مختلفين، متمردين، راغبين في غير المألوف. ولكن عليك ان تهمل ذلك، أيضاً، إذا كنت تريد الاستمرار في الطريق حتى النهاية. لا تستطيع ان تسمح لنفسك بأن تكون ثورياً، أو مثالاً، أو شهيداً. انه أمر يفوق التصور».

نعم لقد كان أمراً يفوق التصور، ولكن من الممكن الحلم به وتوقعه وتخمينه. وأكثر من مرة كنت أحس بدلالة منذرة به - في ساعة السكون المطلق. وعندها كنت أحدق في نفسي وأواجه صورة مصيري. وتكون عيونه مليئة بالحكمة، ومليئة بالجنون، انها تشع حباً أو حقداً وفي الحالات كلها تظل كما هي. ليس مسموحاً لك أن تختار أو ترغب في واحد منها، المسموح لك، فقط، هو أن ترغب في نفسك، في مصيرك وحده. وحتى هذه النقطة كان بستوريوس دليلي ومرشدي.

في تلك الأيام كنت انتقل كالأعمى، أحس بنوبات جنون - فكل خطوة كانت خطراً جديداً، لم أكن أرى أمامي الا الظلام الذي لا يسبر غوره والذي فيه كل الطرق التي سلكتها حتى الآن قد طمست. وفي أعماقي كنت أرى صورة السيد الذي يشبه دميان، وفي عينيه كان مصيري مكتوباً.

كتبت على ورقة: «قائد تخلى عني. وأنا غارق في الظلمة. لا أستطيع أن أمشي خطوة أخرى وحدي، ساعدني».

وكنت أريد أن أرسلها بالبريد إلى دميان، لكنني لم أفعل. وكلما أردت أن أرسلها كانت تبدو سخيفة ولا معنى لها. غير اني كنت أحفظ صلاتي الصغيرة، هذه، عن ظهر قلب وأستظهرها لنفسي. فكانت شغلي الشاغل طوال اليوم. وبدأت أفهمها.

* * *

انتهت أيام المدرسة. سأقوم برحلة خلال عطلتي - وكانت تلك فكرة والدي - ثم أدخل الجامعة. لكنني لم أكن أعرف ما الذي سأختص به. ثم أعطيت حسب رغبتي فصل في الفلسفة. وكان أي موضوع آخر مقبولاً مثله.

٧ ـ ايفا

ذات مرة، خلال العطلة، قمت بزيارة البيت الذي كان يعيش فيه دميان، قبل سنوات، مع أمه، فرأيت عجوزاً تتمشى في الحديقة. وبالتحدث معها عرفت انه بيتها. سألتها عن أسرة دميان. فتذكرتها جيداً لكنها لم تستطع ان تخبرني أين تعيش الأسرة الآن. وعندما أحست باهتمامي أدخلتني إلى البيت، وأخرجت ألبوماً جلدياً وأرتني صورة لأم دميان. لم أكن أستطيع أن أتذكر شكلها جيداً، ولكن وأنا أرى صورتها الصغيرة توقف قلبي: إنها صورة أحلامي! هي، المرأة الطويلة الشبيهة بالذكور، التي تشبه ابنها، مع لمسات أمومة، وقسوة، وعاطفة؛ جميلة ومغرية، جميلة وعصية، الشيطان وأمه، المصير والمعشوقة. ولم يكن هناك مجال للخطأ فيها.

لقد صدمني اكتشافي بهذه الطريقة ان صورة أحلامي موجودة واقعية وكأنني عثرت على معجزة. هناك، ا ذن، إمرأة لها هذا الشكل وتحمل ملامح مصيري! وأم دميان! أين هي؟

بعد قليل حططت رحالي، ويا لها من رحلة غريبة. لقد رحلت دون توقف من مكان الى آخر، لاحقاً بكل دافع، وأنا أبحث دائماً عن هذه المرأة. ولقد مرت بي أيام كان كل من ألتقي به يذكرني بها أو يعطي انطباعاً شبيهاً بها، أو يشبهها؛ وكان يستجرني في شوارع مدن غير مألوفة، وإلى محطات السكك الحديدية. وفي

القطارات، كما يحدث في حلم معقد. وكانت هناك أيام كنت أحس فيها بعبثية بحثي. وعندها كنت أجلس بتكاسل في أي مكان، في حديقة عامة، أو في حديقة فندق ما، في غرفة انتظار محاولاً إحياء الصورة في داخلي. ولكنها تصبح خجولاً ومراوغة. ويصبح من المستحيل عليّ أن أنام. وفي سفري بالقطار، فقط، كنت أستطيع أن أغفو غفوة قصيرة. وذات مرة، في ميونيخ، تقربت مني امرأة، وكانت مخلوقاً جميلاً وقحاً. ولم أنتبه إليها جيداً. فعبرت بها وكأنها غير موجودة. ولو أنني اهتممت بامرأة أخرى، ولو لساعة واحدة فقط، لمتُّ لتوي.

أحسست بقدري يجرني، وأحسست بلحظة تحققي تقترب، وقد أمضني نفاد صبري لأنني لا أستطيع أن أفعل شيئاً. ومرة في محطة للسكك الحديدية، في انسبرك على ما أظن، لمحت امرأة ذكرتني بها ـ في قطار منطلق لتوه. فظللت تعيساً عدة أيام. وبغتة عاد الشكل إلى الظهور في أحد الأحلام في إحدى الليالي. أفقت مخزياً ومغموماً لفشل مطاردتي ثم اخذت القطار التالي عائداً.

بعد أسابيع قليلة سجلت في جامعة (هـ.) ووجدت كل ما فيها مخيِّباً. كانت المحاضرات عن تاريخ الفلسفة عديمة الحياة ومقولبة مثل نشاطات معظم الطلبة. كل شيء بدا وكأنه يمشي حسب نمط قديم، كل انسان كان يفعل الشيء ذاته. والبهجة المفتعلة على الوجوه الولادية كانت تبدو، بشكل مفجع، فارغة ومسبقة الصنع. ولكن أنا، على الأقل، كنت حراً. ان لديّ النهار بطوله لنفسي. وكنت أعيش بهدوء وسلام في بيت عتيق قرب سور البلدة. وعلى طاولتي عدة مجلدات لنيتشه. كنت أعيش معه، وأستشعر وحدة روحه، وأتصور المصير الذي كان يسيره بعناد. كنت أعاني معه، وأفرح لان هناك إنساناً واحداً يمشي إلى مصيره بلا شفقة.

وفي وقت متأخر من إحدى الأمسيات كنت أتمشى في البلدة. وكانت ريح خريفية تهب وكنت أستطيع أن أسمع الصخب الأخوي في الحانات. وكانت سحابات من دخان التبغ تخرج من نافذة مفتوحة مع تدفق أغنية صاخبة إيقاعية عديمة الأصالة وليس فيها نبض حياة.

وقفت عند زاوية الشارع وأصغيت. من البارات كان مرح الشباب الممنهج المكرور يصخب في الليل. تواصل كاذب في كل مكان، وفي كل مكان هدر لمسؤولية المصير، وهروب الى القطيع بحثاً عن الدفء.

رجلان يمشيان ببطء جاءا من خلفي. والتقطت بعض الكلمات من حديثهما: كان احدهما يقول:

- أليس شبيهاً ببيت الشباب في كرال* ان كل شيء متلائم مع الايقاعات السائدة مؤخراً. انظر، هذه أوروبا الفتية.

بدا الصوت أليفاً بشكل غريب وموقظ للذاكرة. مشيت وراء الرجلين في الحارة المعتمة. كان أحدهما يابانياً، قصيراً وأنيقاً. وتحت مصباح الشارع رأيت وجهه الأصفر يتألق بابتسامة.

كان الآخر يتحدث الآن من جديد:

- أعتقد ان الأمر سيء بالمقدار ذاته حيث أنت، في اليابان. الذين لا يلحقون بالقطيع نادرون في كل مكان. هنا يوجد بعضهم أيضاً.

شعرت بمزيج من القلق والغبطة وأنا أتلقى كل كلمة. عرفت المتحدث. انه دميان. تبعته، والياباني، في الشوارع التي كنستها الرياح. وأنا أستمع إلى حديثهما كنت أتذوق نبرة صوت دميان. ماتزال له هذه الرنة الأليفة، واليقين الجميل القديم ذاته والهدوء. كل ما كان له ذلك التأثير الكبير عليّ. كل شيء على ما يرام الآن. لقد عثرت عليه.

في نهاية شارع في الضاحية انصرف الياباني وفتح باب بيته. وعاد دميان من حيث أتى. كنت قد توقفت ورحت انتظره وسط الشارع. وبلغت الإثارة حدها الأقصى وأنا أراه يقترب، منتصباً بخطواته المرنة، ومعطفه الرمادي المطاطي الواقي من المطر. ازداد اقتراباً دون ان يغير خطواته الى ان وقف على بعد خطوات قليلة مني. ثم خلع قبعته وكشف عن وجهه العجوز ذي الجلد الرقيق والفم المصمم

---

* قرية من قرى أهالي جنوب أفريقيا الأصليين. ـ المورد.

والاشراق الغريب على جبهته العريضة.

ـ دميان. هتفت.

مد يده.

- هذا أنت اذن يا سنكلير! كنت أنتظرك.

ـ هل كنت تعرف انني هنا؟

- لم أعرف ذلك بالضبط لكنني، بالتحديد، كنت ارغب في ان تكون هنا. ولم يسبق ان لمحتك قبل هذا المساء. لقد كنت تتبعنا منذ وقت لا بأس به.

وهل عرفتني فوراً؟

طبعاً. لقد تغيرت قليلاً ولكن لديك العلامة.

ـ العلامة.اية علامة؟

- فيما مضى كنا نسميها علامة قابيل ـ ان كنت ما زلت تذكر. انها علامتنا. لقد كانت عليك دائماً، ولهذا صرت صديقك. ولكنها صارت الآن اكثر وضوحاً.

ـ لم أكن اعرف ذلك. أو، بدقة، نعم. ذات يوم رسمت صورة لك، يا دميان، وأدهشني انها كانت تشبهني ايضاً. أكان هذا بسبب العلامة؟

ـ بالضبط، جميل انك هنا. ستفرح أمي أيضاً.

خفت بغتة.

أمك؟ هل هي هنا أيضاً؟ ولكنها لا تعرفني.

- لكنها سمعت بك. وستعرفك حتى دون أن أقول من أنت. لقد ظللنا فترة طويلة نجهل كل شيء عنك.

ـ كنت دائماً اريد ان أكتب لك. ولكن لم تكن هناك فائدة. ولقد عرفت منذ وقت لا بأس به انني سأجدك قريباً. كنت انتظر ذلك كل يوم.

دفع بذراعه تحت ذراعي وسار معي. وأحاطت بي هالة من السكينة هيمنت عليّ. وسرعان ما عدنا نتحدث كما كنا نفعل في الماضي وعادت بنا الأفكار الى أيامنا في المدرسة، ودروس الدين، وأيضاً إلى لقائنا الأخير غير المفرح اثناء

عطلتي. الرابط الأقدم والأوثق بيننا، حادثة فرانز كرومر، وحده لم نأت على ذكره.

وبغتة وجدنا نفسينا نخوض حديثاً غريباً يلامس العديد من الموضوعات المشؤومة. ابتدأنا من حيث كان دميان قد توقف في حديثه مع الياباني؛ وناقشنا الحياة التي يعيشها معظم الطلبة، ثم انتقلنا الى موضوع آخر، موضوع كان يبدو في أغوار الماضي. ولكن في كلمات دميان توضحت رابطة ودودة مع الحاضر.

تحدث عن روح أوروبا وعن علامات الزمان، قال إنه في كل مكان نستطيع ان نلحظ طغيان غريزة القطيع. ولا مكان للحرية والحب. وهذه الروابط المزيفة كلها ـ من الجمعيات الأخوية الى فرق الكورال الى الأمم ذاتها ـ هي التطور الحتمي، انها التجمع المولود من الخوف والذعر، من الاحباط، ولكنه في أعماقه مهترىء وبالٍ وآيل الى الانهيار.

«التجمع الأصيل» قال دميان: «شيء جميل. ولكن ما نراه يزدهر في كل مكان شيء مختلف، الروح الحقيقية ستبرز من المعرفة التي يملكها الأفراد المنفصلون كل منهم عن الآخر. وبعد حين من الزمن سوف تحوّل العالم. أما روح التجمع الآن فما هي إلا من تجليات غريزة القطيع. ان كل انسان يندفع الى ذراعي الآخر لأن كل إنسان يخاف من الآخر ـ الملاكون على حدة، والعمال على حدة، والطلبة والباحثون على حدة! ولم خوفهم! انك لا تخاف الا حين لا تكون منسجماً مع نفسك. والناس خائفون لأنه لم يسبق لهم ان كانوا مسيطرين على أنفسهم. مجتمع بأكمله مؤلف من أناس خائفين من المجهول الذي فيهم. وكلهم يحسون ان الأسس التي يعيشون وفقها لم تعد صالحة، وانهم يعيشون وفق قوانين بالية ـ لا دينهم ولا أخلاقهم في تلاؤم مع حاجات الحاضر. منذ مئة سنة وأكثر لم تفعل أوروبا شيئاً سوى دراسة المعامل وبنائها، إنهم يعرفون كم غراماً من البارود تحتاج لقتل إنسان لكنهم لا يعرفون كيف تصلي الى الله، لا يعرفون حتى كيف تكون سعيداً ولو لمدة ساعة من الرضا. أَلْقِ، فقط، نظرة على حالة الطلاب المزرية أو إلى منتجع مما يؤمه الأغنياء. حالة ميؤوس منها. يا عزيزي سنكلير. لا يمكن ان

يفعل هذا كلّه شيء جيد. هؤلاء الناس الذين يحتشدون معاً بدافع الخوف مليئون بالذعر والكراهية، وما من واحد بينهم يثق بالآخر. انهم يتطلعون الى المُثل التي لم تعد مُثلا. ولكنهم سوف يطاردون حتى الموت من يطرح مثلاً جديدة. أكاد أحس منـذ الآن الصراع المقبل. صدقني. انه قادم وسريعاً جداً. لن «يحسّن» العالم بالطبع. وسواء قضى العمال على أصحاب المعامل أو شنت ألمانيا الحرب على روسيا فان هذا لن يعني إلا تغييراً في الملكية. ولن يكون هذا كله دون طائل. انه سيكشف عن إفلاس المثل الحالية. ستحدث إزالة تامة لآلهة العصر الحجري. العالم، في الحالة التي هو عليها الآن، يحتاج الى ان يموت، يحتاج إلى أن يفنى ـ وسوف يحدث ذلك.

ـ وما الذي سيحدث لنا أثناء هذا النزاع؟

- لنا ؟ ربما انتهينا فيه. نوعيتنا يمكن ان تقتل أيضاً. الفارق، فقط، هو انه لا يمكن الانتهاء منا بسهولة. ولكن حول ما يتبقى منا، حول الذين سيتمكنون من البقـاء أحياء، سوف تتجمـع ارادة المستقبـل، ارادة البشرية، التي هتفت قارتنا الاوروبية بسقوطها منذ زمن تحت وطأة سعار التكنولوجيا، سوف تتقدم الى المقدمة من جديد. وعندها سيتبين ان ارادة البشرية ليست في اي مكان ـ ولم تكن من قبل أبْداً ـ متطابقة مع مجتمعات العصر الحاضر ودوله وشعوبه ونواديه وكنائسه. أبداً. إن ماتـريده الطبيعة من الإنسان مكتوب بشكل راسخ في الفرد، فيك وفيَّ. انه راسخ في يسوع وهو، أيضاً، راسخ في نيتشه. هذه التيارات ـ والتي هي وحدها المهمةوالتي هي، بالطبع قادرة على اتخاذ أشكال مختلفة كل يوم ـ ستجد متنفساً لها حالما تنهار المؤسسات الحالية.

كان الوقت متأخراً عندما توقفنا قرب حديقة على جانب النهر.

- هنا نعيش ـ قال دميان ـ يجب ان تأتي قريباً لزيارتنا. لقد كنا ننتظرك.

مليئاً بالبهجة مشيت الطريق الطويل عائداً الى بيتي في الليل الذي صار الآن بارداً. هنا وهناك كان الطلاب يعودون مترنحين صاخبين الى مقراتهم. ولقد سبق لي ان لاحظت التناقض بين مرحهم المضحك وبين وحدانيتي، أحياناً باحتقار،

وأحياناً بإحساس بالحرمان. ولكن لم يسبق لي قبل اليوم ان شعرت، بهذا القدر من الهدوء ومن الطاقة الخفية الكامنة، الى اي مدى لم يكن ذلك يعنيني. وكم كان هذا العالم نائياً عني وميتاً بالنسبة لي. تذكرت الموظفين في بلدتنا، أولئك العجائز المحترمين، وهم يتعلقون بذكريات أيام السكر الجامعية كتذكارات من الفردوس وهم يعيدون صياغة مذهب عن أيام الدراسة «المنصرمة» مثلما يفعل الشعراء وغيرهم من الرومانتيكيين بطفولتهم. الحالةُ ذاتها في كل مكان. في كل مكان يتطلعون الى «الحرية» و«الحظ» في الماضي، وانطلاقاً من الخوف الخالص من مسؤولياتهم الحالية ومن مسار مستقبلهم. لقد شربوا وصخبوا سنوات قليلة ثم تقلصوا متراجعين لكي يصبحوا سادة محترمين ذوي عقول جادة في خدمة الدولة. نعم. لقد كان مجتمعنا متعفناً؛ وتفاهات الطلاب هذه غبية جداً، ولكنها ليست سيئة بمقدار سوء مئات الأشياء الأخرى.

وحين وصلت الى بيتي البعيد وبدأت أستعد للنوم كانت هذه الأفكار كلها قد تلاشت، وتعلق كياني كله، بأمل، بالوعد الكبير الذي جلبه لي هذا اليوم. حالما أريد، وحتى غداً، أستطيع أن أرى أم دميان. فليمارس الطلاب صخبهم السكران وليدقوا وجوههم بالوشم؛ ان العالم المتعفن يستطيع ان ينتظر دماره ـ وهذا كل ما يعنيني. كنت انتظر شيئاً واحداً فقط ـ أن أرى مصيري يتقدم في مظهر جديد.

نمت حتى وقت متأخر من صباح اليوم التالي. وقد بزغ اليوم الجديد بالنسبة لي مثل عيد مهيب، ذلك النوع من الأعياد الذي لم أعشه منذ طفولتي. لقد كنت معبأً بالقلق ولكن دون خوف من أي نوع. شعرت بأن يوماً مهمّا بالنسبة لي قد بدأ. ولقد رأيت وعشت العالم المتغير من حولي وهو يتحول إلى عالم واعد ذي معنى وهيبة. حتى المطر الخريفي اللطيف كان له جماله وهواؤه الهادىء البهيج المترع بالموسيقى السعيدة القدسية. وللمرة الأولى كان العالم الخارجي متناغماً تماماً مع العالم الداخلي. لقد كان من المفرح ان تكون حياً. لم يزعجني بيت أونافذة حانوت أو وجه. كل شيء كان كما يجب ان يكون ودون أي مظهر رتيب أو سطحي

من مظاهر الشيء اليومي . كان كل شيء جزءاً من الطبيعة ، واعداً ومستعداً لمواجهة مصيره باحترام. هكذا كان العالم يبدو لي في الصباحات التي كنت ما أزال فيها طفلاً صغيراً، في أيام الأعياد الكبيرة، عيد الميلاد وعيد الفصح . لقد نسيت ان العالم ما زال في وسعه ان يكون ودوداً ولطيفاً. كبرت وأنا أتعود العيش مع داخلي ولقد استرخيت أمام معرفتي بأنني قد فقدت كل تقويم للعالم الخارجي ، وان ضياع ألوانه البراقة جزء لا يتجزأ من ضياع طفولتي ، وأنه، بمعنى من المعاني ، على المرء ان يتخلى عن هذه الهالة المغرية ثمناً لحريته ولنضج روحه . أما الآن، والغبطة تغمرني ، فقد رأيت ان هذا كله كان مدفوناً أو مستتراً وانه مازال من الممكن ـ حتى لو تحررت وفقدت سعادة طفولتك ـ ان ترى العالم يشع وان تنقذ الرعشة اللذيذة التي كانت في رؤيا الطفل.

وجاءت اللحظة التي عثرت فيها على طريق العودة الى الحديقة في ظاهر البلدة حيث ودعت دميان في الليلة السابقة. كان هناك بيت صغير ومقبول يتخفى وراء اشجار طويلة رطبة. وكانت هناك نباتات مزهرة وراء الزجاج: ووراء النوافذ اللامعة كانت هناك جدران قائمة وعليها صور ورفوف من الكتب. وكان المدخل يؤدي مباشرة الى ممر صغير دافىء. وقادتني خادم عجوز صامتة ترتدي الأسود مع مئزر أبيض ثم أخذت سترتي.

تركتني في الرواق وحدي ، تطلعت حولي وسرعان ما غرقت في لجة حلمي . فى الأعلى وعلى جدار مغطى بالخشب الغامق، فوق الباب ، كانت هناك صورة معروفة. صورة طائري برأس الباشق الأصفر الذهبي يحاول التملص من قوقعته الدنيوية. تأثرت بعمق فوقفت حيث كنت بلا حراك ـ شعرت بالألم والغبطة معاً وكأن كل ما كنت قد فعلته وعرفته قد عاد اليّ في تلك اللحظة بصيغة جواب وتحقق. وبومضة رأيت حشوداً من الصور تعبر مخيلتي : بيت والديَّ والشعار على مدخله. والولد دميان يرسم الخطوط العريضة له، وأنا الولد تحت رحمة عدوي كرومر، ثم أنا اليافع في غرفتي في المدرسة أرسم طائر أحلامي على طاولة هادئة، والروح العالقة في حبالها الذاتية ـ وكل شيء، كل شيء حتى هذه اللحظة راح

صداه يتردد في أعماقي من جديد، وفي داخلي يتأكد ويجد جوابه ويُصادق عليه.

بعينين مغـرورقتين بالـدمـوع حدقت الى صورتي ورحت أقرأ نفسي. ثم أنزلت عينيَّ تحت صورة الطائر ووسط الباب المفتوح كانت هناك امرأة طويلة تقف بملابس سوداء. إنها هي

عجـزت عن أن ألفظ كلمـة. وبـوجـه شبيه بوجه ابنها، وجه خارج الزمن والعمـر، ومليء بالقـوة الداخلية، ابتسمت المرأة الجميلة ابتسامة رصينة. كانت تطليعتها تحققاً، وتحيتها عودة الى البيت الأليف، بصمت مددت يديَّ لها. وأخذتهما بين يديها القويتين الدافئتين.

ـ انت سنكلير. لقد عرفتك فوراً أهلاً بك.

كان صوتها عميقاً ودافئاً. وتشربته مثل خمرة حلوة. ورحت اتطلع الى وجهها الهادىء، والى العينين السوداوين اللتين لا يسبر غورهما، والى شفتيها الطازجتين الناضجتين، وإلى الجبين الصافي البهي الذي يحمل العلامة.

كم أنا سعيد. قلت وأنا أقبل يديها. أعتقد انني كنت أمشي طوال حياتي وأنني، الآن، أصل الى بيتي.

ابتسمت مثل أم. وقالت:

لا يصل المرء الى بيته أبداً. ولكن حيث الطرق المتآلفة تتقاطع مع العالم كله يبدو كأنه البيت ولفترة قصيرة.

كانت تعبـر عما أحسسته وأنا في طريقي اليها. وكان صوتها وكلامها مثل صوت ابنها وكلامه وفي الوقت ذاته كانا مختلفين تماماً. كل ما فيها كان أكثر نضجاً ودفئاً وتلقائية. ولكن ومثلما ان ماكس لم يعط أحداً الانطباع بأنه ولد، كذلك فان أمه لم تكن تبدو أبداً كإمرأة لديها ابن كبير. كان شعرها ووجها في غاية العذوبة والفتوة. وكانت بشرتها الذهبية في منتهى التماسك والنعومة، وكان فمها كأبهى ما يمكن ان يكون. وبأبهة تفوق ما عرفت في أحلامي كانت تقف أمامي.

هذه، اذن، هي الهيئة الجديدة التي يتبدى لي فيها مصيري. لم يعد كالحاً ولم يعد يعزلني بل هو الطازج البهي والمبهج لم أتخذ قرارات ولم أتعهد بشيء

ـ لقد حققت هدفاً، ووصلت الى نقطة سامية في طريقي : ومن هذه النقطة بدت المرحلة الثانية من الرحلة يسيرة ورائعة ومؤدية الى الدنيا الموعودة . ومهما حدث لي الآن فقد كانت النشوة تملأ كياني : لأن هذه المرأة موجودة في العالم ولأنني أستطيع أن اتشرب صوتها وأتنفس حضورها . وسواء كانت ستصير أمي أم عشيقتي أم ربتي ـ يكفيني انها موجودة! لا يهمني إلا أن يكون طريقي قريباً من طريقها.

أشارت إلى لوحتي . وقالت بلهجة متأملة :

ـ لا يمكنك ان تجعل ماكس سعيداً أكثر مما كان بهذه الصورة . وكذلك أنا . لقد كنا ننتظرك . وحين وصلت اللوحة عرفنا انك في الطريق . عندما كنت ولداً صغيراً، يا سنكلير، عاد ابني ذات يوم من المدرسة الى البيت وقال لي : هناك ولد في المدرسة يحمل العلامة على جبهته ولا بد ان يصير صديقي . وكان يعنيك . انك لم تمر بأيام يسيرة ولكننا كنا واثقين منك . ولقد التقيت بماكس مرة أخرى في احدى عطلاتك، لا بد انك كنت في السادسة عشرة . وماكس حكى لي عن ذلك اللقاء ـ .

قاطعتها : أخبرك عن ذلك؟ كانت تلك أسوأ فترة في حياتي .

ـ نعم . قال لي ماكس : ان سنكلير يواجه أصعب مراحله الآن . إنه يقوم بمحاولة أخرى للالتجاء إلى الآخرين . حتى انه بدأ يذهب إلى البارات . لكنه لن يفلح . إن علامته تغيم لكنها تسيّره سراً . ألم يكن الأمر كذلك؟

ـ تماماً ، في ذلك الحين عثرت على بياتريس ثم في النهاية عثرت على أستاذ جديد . اسمه بستوريوس . عندها، فقط، اتضح لي لماذا كانت طفولتي مرتبطة بهذه الشدة بماكس، ولماذا لا استطيع ان اتحرر منه . في ذلك الحين، يا أمي العزيزة، عرفت ان عليّ أن ألتزم بحياتي فهل الطريق صعب بالمقدار نفسه على كل إنسان؟

ربتت على شعري . وكانت لمستها خفيفة مثل نسمة :

ـ الولادة صعبة دائمة . انت تعرف ان الفرخ لا يخرج من البيضة بسهولة . تذكر واسأل نفسك : أكان الطريق صعباً فقط؟ ألم يكن جميلاً أيضاً؟ وهل تستطيع

ان تفكر في طريق أجمل وأسهل؟

هززت رأسي. ثم قلت «لقد كان صعباً. كان قاسياً الى ان أتى الحلم.»

هزت رأسها واخترقتني بنظرة: «نعم. يجب أن تعثر على حلمك، وعندها يصبح الطريق سهلاً. ولكن ليس هناك حلم يدوم إلى الأبد. كل حلم يتلوه حلم آخر. وعلى المرء ان لا يتعلق بحلم محدد».

اضطربت وخفت أكان هذا إنذاراً، إشارة دفاعية، بهذه السرعة؟ ولكن لا يهم: كنت مستعداً لأن أسلم زمامي لها دون أن أسأل عن نهاية المطاف.

قلت: لا أعرف إلى أي مدى سيستمر حلمي. أتمنى لو يدوم إلى الأبد. لقد تلقاني مصيري تحت صورة الطائر كما يلتقي عاشق ومعشوق. إنني أنتمي لمصيري ولا أنتمي لغيره.

أكدت بلهجة جادة: طالما ان الحلم مصيرك يجب ان تظل مخلصاً له.

غلبني الحزن والرغبة في الموت في تلك اللحظة: أحسست بالدموع ـ منذ أي أبد لم أبك ـ، دون قدرة لي على مقاومتها تندفع من عينيّ وتغمرني. أشحت بوجهي مبتعداً عنها. مشيت الى النافذة ورحت أنظر الى البعيد كالأعمى.

وسمعت صوتها خلفي، هادئاً ومترعاً بالعطف كما يترع الكأس بالخمر.

ـ يا سنكلير. أنت ولد. ومصيرك يحبك. وذات يوم سيكون لك وحدك ـ مثلما تحلم به تماماً ـ إذا ظللت وفياً له.

كنت قد سيطرت على نفسي فالتفتُّ إليها مجدداً. ومدت لي يدها.

قالت مبتسمة أصدقائي قليلون. والخلص بينهم ينادونني فراو إيفا* وإذا أحببت يمكنك ان تكون واحداً منهم.

قادتني إلى الباب، وفتحته ثم أشارت الى الحديقة: «ستجد ماكس هناك».

وقفت تحت الأشجار الباسقة زائغاً ومهزوزاً دون أن أعرف ما إذا كنت أكثر يقظة مما مضى أم انني في حلم. كان المطر ينثر رذاذاً لطيفاً من بين الغصون.

* يجب الانتباه الى أن الاسم يعني حواء. ـ المترجم.

مشيت ببطء في الحديقة الممتدة على ضفة النهر. وأخيراً عثرت على دميان. كان يقف في بيت صيفي مكشوف، عارياً حتى خصره، وهو يلكم كيساً رملياً معلقاً.

وقفت مدهوشاً، كان دميان يبدو وسيماً جداً بصدره العريض وتقاطيعه الرجولية القوية؛ الذراعان المرفوعتان بعضلات مشدودة، قويتان ومتينتان، والحركات تنبثق لاهية ناعمة من ردفيه وكتفيه ورسغيه. هتفت به:

- دميان. ما الذي تفعله هناك؟

ضحك بسعادة:

اتمرن لقد وعدت الياباني بجولة ملاكمة. ان هذا الصديق الصغير رشيق كالهر وبارع أيضاً. لكنه لن يتمكن من هزيمتي. هناك إهانة صغيرة يجب أن أردها له.

لبس قميصه وسترته. ثم سألني: هل رأيت أمي؟

- نعم يا دميان يا لها من أم رائعة! فراو إيفا! الاسم يلائمها تماماً انها مثل ام كونية.

تطلع الى شكلي متأملاً لفترة ثم قال:

- لقد عرفت اسمها اذن. تستطيع ان تفاخر بذلك، أنت أول شخص تخبره باسمها منذ اللقاء الأول.

منذ ذلك اليوم صرت أتردد على البيت مثل ابن أو أخ - ولكن أيضاً مثل عاشق. حالما أفتح الباب، وحالما أرى الأشجار الباسقة في الحديقة، أحس بالسعادة والغنى. في الخارج كان هناك الواقع: شوارع وبيوت وأناس ومؤسسات ومكتبات وقاعات محاضرات - ولكن هنا في الداخل يوجد الحب؛ هنا تعيش الأسطورة والحلم. ولكننا لم نكن نعيش منعزلين عن العالم الخارجي؛ في أفكارنا وأحاديثنا كثيرا ما كنا نعيش في غماره ولكن بصيغة مختلفة تماماً. لم يكن يفصلنا عن غالبية البشر أي حد بل كان يفصلنا أسلوب في النظر. وكانت مهمتنا ان نمثّل جزيرة في العالم؛ نموذجاً أولياً ربما، أو على الأقل أفقاً لنمط جديد من الحياة. تعلمت، انا الذي انعزل طويلاً، الرفقة التي صارت محتملة بين الناس الذين

تذوقوا الوحدة الكاملة. لم أعد أتوق الى موائد المحظوظين وأعياد المبروكين. ولم أعد أحس بالحسد أو يطغى عليّ التوق المرضي عندما أرى أفراح الآخرين الجماعية. وتدريجياً تلقنت سر أولئك الذين يحملون العلامة في وجوههم.

نحن، الذين نحمل العلامة، يمكن للعالم ان يعتبرنا بحق «شواذ»، لا بل ومجانين وحتى خطرين. كنا نعي، أو في طريقنا الى ان نعي، وكان سعينا موجهاً نحو تحقيق حالة اكثر تكاملاً من الوعي؛ بينما سعي الآخرين بحث موجه الى ربط الأفكار والمثل والواجبات والحيوات والحظوظ ربطاً وثيقاً بغيرهم في القطيع.هناك، أيضاً، سعي. وهناك، أيضاً، قوة وعظمة. ولكن فيما نحن، أصحاب العلامة، نعتقد اننا نمثل إرادة الطبيعة في التجدد وفي فردانية المستقبل، كان الآخرون يسعون الى تأبيد الوضع الراهن. والانسانية ـ التي يحبونها كما نحبها ـ بالنسبة لهم متكاملة ويجب دعمها وحمايتها. أما بالنسبة لنا فالإنسانية هدف بعيد يتحرك نحوه البشر جميعاً، ولا يعرف صورتها احد، ولم تكتب قوانينها في أي مكان.

إضافة الى فراو إيفا وماكس وأنا، كان باحثون آخرون، بشكل أو بآخر، مرتبطين بالدائرة. وقلة منهم من اتخذوا طرقاًفردانية، وقرروا لأنفسهم، أهدافاً مختلفة وغير مألوفة وتعلقوا بأفكار وواجبات محددة. كان بينهم علماء فلك، وقبلانيون(*) وتلميذ للكونت تولستوي، وكافة أنواع المخلوقات الهشة الخجولة الصغيرة، وأتباع مذاهب جديدة، ومنقطعون للصوفية الهندية، ونباتيون وغيرهم. لم تكن بيننا، عملياً، أية رابطة ذهنية بشكل عام إلا الاحترام الذي يكنه كل منا لمثل الآخر. والذين كنا نحس نحوهم بقرابة وثيقة هم المعنيون ببحث البشر في الماضي عن الآلهة والمثل ـ دراساتهم كانت كثيراً ما تذكرني ببستوريوس. كانوا يجلبون معهم كتباً ويترجمون بصوت مرتفع نصوصاً عن لغات قديمة، ويجعلوننا نرى صوراً لرموز وطقوس قديمة ويعلموننا ان نرى كيف ان المجموعة الكاملة لمثل الإنسانية تشتمل على الأحلام التي تنبثق من اللاوعي،

---

* القبلانية: فلسفة دينية سرية عند أحبار اليهود وبعض نصارى العصر الوسيطمبنية على تفسير الكتاب المقدّس تفسيراً صوفياً. (المورد).

والأحـلام التي سعت من خلالها الانسانية الى جوهر طاقات المستقبل. وهكذا تعـرفنا على كتلة الآلهة المدهشة ذات الألف رأس منذ ما قبل التاريخ الى فجر الهداية المسيحية. استمعنا الى عقائد الأولياء المعتزلين، والى التحولات التي تمر بها الأديان عند انتقالها من إنسان الى آخر. وبهذا، ومن كل شيء جمعناه بهذه الطريقة، اكتسبنا فهماً نقدياً لعصرنا ولأوروبا المعاصرة: بجهود مكثفة وكبيرة تَمّ خلق أسلحة جديدة للبشر ولكن النهاية كانت عزلة عميقة وفظيعة للروح. لقد قهرت أوروبا العالم كله من أجل أن تخسر روحها فقط.

كما كانت دائرتنا تضم مؤمنين، متحدرين من آمال معينة وعقائد شافية؛ كان هناك بوذيون يسعون الى هدي أوروبا، وتلميذ لتولستوي كان يدعو الى عدم مقاومة الشر، اضافة الى مذاهب اخرى. وكنا، نحن الذين في الدائرة الوسطى، نستمع دون أن نتقبل أياً من هذه التعاليم ونكتفي بالنظر إليها كاستعارات تشبيهية. نحن، الـذين كنا نحمل العلامة، لم نكن نحس بأي قلق حول الشكل الذي سيأخذه المستقبـل. هذه العقـائـد والتعـاليم، كلها، كانت تبدو لنا ميتة وعديمة النفع. الواجب الوحيد والمصير الوحيد، اللذان تقبلناهما، هما ان على كل منا ان يصير نفسه تماماً، وان يكون مخلصاً إخلاصاً شديداً للبذرة النشطة التي زرعتها الطبيعة فيه، وعندما يعيش نموها لن يدهشه قدوم أي شيء مجهول.

وعلى الرغم من اننا ربما كنا عاجزين عن التعبير عن الأمر! إلا اننا، جميعاً، كنا نشعر بشكل واضح ان ميلاداً جديداً وسط انهيار هذا العالم القائم أمر وشيك وتكاد ملامحه ان تبين. وكثيراً ما كان دميان يقول لي: «ما سيأتي أمر يفوق التصور. روح أوروبا وحش ظل مقيداً ردحاً طويلاً من الزمن. وحين يتحرر هذا الوحش لن تكون حركاته الأولى لطيفة. غير أن الوسائل لا أهمية لها طالما ان الروح قد تعرفت على حاجاتها الحقيقية بعد ان ظلت طويلاً معاقة ومخدرة، وعندها سيأتي يومنا. وعندها ستظهر الحاجة الينا. ليس كقادة أو مشرعين ـ إذ لن نكون موجودين لكي نعرف القوانين الجديدة ـ بل كأناس راغبين، أناس مستعدين للتقدم وهم على أهبة الاستعداد حيثما احتاج إليهم المصير. ان الناس جميعاً مستعدون لتحقيق

المعجزات اذا أحسوا ان مثلهم مهددة. ولكن لا أحد يكون مستعداً عندما يشعرون بمثل أعلى جديد، جديد وربما خطر ومشؤوم. والقلة التي ستكون مستعدة في ذلك الحين والتي ستتقدم هي نحن. ولهذا نحن علينا علامة ـ مثلما كان قابيل ـ وذلك من أجل إثارة الخوف والكراهية ومن أجل إخراج الناس من عطالتهم المطمئنة إلى مواقع أكثر خطراً. وجميع أولئك الذين لهم تأثيرهم على مجرى تاريخ البشر، جميعهم بلا استثناء، كانوا قادرين ومؤثرين لمجرد انهم كانوا مستعدين لقبول المحتوم. وهذا ينطبق على موسى وبوذا، وعلى نابليون وبسمارك. والحركة المعينة التي يخدمها المرء، والقطب الذي يوجه عنه المرء، من الأمور التي تقع خارج إطار اختياره. ولو أن بسمارك تفهم الديموقراطيين الاجتماعيين ووجد صيغة معتدلةمعهم لكان مجرد رجل بارع ولكنه ما كان ليصير رجل قدر. والأمر ذاته ينطبق على نابليون وقيصر ولويولا* وجميع رجالات هذه الفئة. عليك دائماً ان تفكر في هذه الأمور ضمن منحى تطوري وتاريخي، عندما قام اضطرام سطح الأرض بطرح مخلوقات البحر على اليابسة ومخلوقات البر في البحر فإن عينات من الجماعات المختلفة التي كانت على استعداد لمواجهة مصيرها والذين حققوا الجديد وما لا سابق له؛ هؤلاء بلجوئهم إلى التأقلم البيولوجي الجديد تمكنوا من إنقاذ أجناسهم من الدمار. ونحن لا نعرف ما اذا كانوا هم أنفسهم النماذج التي ميزت نفسها في الماضي عن أقرانها بكونها محافظة وداعية للإبقاء على الأمور كما هي أم أنهم الشواذ والثوريون؛ لكننا نعرف بالتأكيد انهم كانوا مستعدين ولذا فإنهم استطاعوا أن يقودوا جماعاتهم إلى مراحل جديدة من التطور. لهذا نريد أن نكون مستعدين».

كثيراً ما كانت فراو إيفا تحضر هذه المحادثات إلا أنها لم تكن تشارك بالطريقة ذاتها. كانت مستمعة، ومليئة بالثقة والتفهم، وصدى لكل منا وهو يشرح أفكاره. وكان يبدو وكأن التفكير كله ينطلق منها ويعود، في النهاية، إليها، وكانت سعادتي هي في الجلوس إلى جانبها وسماع صوتها بين حين وآخر والمشاركة في الجو الروحاني الغني الذي يحيط بها.

* القديس أغناطيوس لويولا: من أهم المصلحين الكاثوليك في القرن السادس عشر، وهو مؤسس الجزويت.

كانت تحس فوراً بأي تغيير، بأية تعاسة، وأي تطور جديد يحدث لي حتى تهيأ لي أن أحلامي في الليل هي التي توحي بها. وكثيراً ما كنت أروي لها هذه الأحلام فتراها مفهومة وطبيعية؛ لم يكن فيها أي شيء غير مألوف مما لا تستطيع استيعابه. وكانت أحلامي، لفترة، استعادة لنماذج من أحاديثنا في النهار. وكنت أحلم بأن العالم كله تدب فيه الفوضى وانني، وأحياناً مع دميان، أنتظر اللحظة العظيمة. ولقد ظل وجه المصير غائماً إلا انه بشكل أو بآخر كان يحمل ملامح من فراو إيفا: واختيارها أو رفضها له هو القدر.

كانت، أحياناً، تقول مبتسمة: «حلمك ناقص يا سنكلير، لقد أهملت أفضل جانب فيه». وعندها كنت أتذكر الجانب الذي أهملته دون أن أفهم كيف حدث لي أن نسيته.

وأكون، أحياناً، غير راض عن نفسي ورغباتي تعذبني، وأحس بأنني لم أعد قادراً على احتمال بقائها قربي دون أخذها بين ذراعي. وكانت تحس بذلك أيضاً وفور حدوثه. ذات مرة غبت عدة أيام ثم عدت مرتبكاً فانتحت بي جانباً وقالت: «يجب أن لا تستسلم للرغبات التي لا تؤمن بها. أنا أعرف ما ترغب فيه. ولكن عليك إما أن تتمكن من التخلي عن هذه الرغبات أو أن ترى نفسك مبرراً تماماً عند تحقيقها. وعندما تتمكن من صياغة طلبك بحيث تكون واثقاً من تحقيقه فإن التحقيق سيحدث. ولكنك، في الوقت الحاضر، متأرجح بين الرغبة ورفضها. ولذا فأنت تعيش الخوف الدائم. يجب التغلب على هذا كله. واسمع هذه القصة».

ثم حكت لي عن شاب أحب كوكباً. كان يقف قرب البحر ويمد ذراعيه ليصلي للكوكب. وكان يحلم به ويوجه أفكاره كلها باتجاهه. لكنه كان يعرف، أو يحس انه يعرف، ان النجم لا يمكن عناقه مثل البشر. وكان يعتبر ان قدره هو ان يحب جسداً سماوياً دون أي أمل في تحقيق هذا الحب. ومن هذه البصيرة اقام فلسفة كاملة لنكران الذات وللمعاناة الصامتة المخلصة التي طورته وطهرته. إلا أن أحلامه، كلها، كانت تصل إلى الكوكب. وذات يوم كان يقف على المنحدر

الصخري الشاهق المطل على البحر ليلاً وراح يحدق إلى الكوكب وهو يشتعل حباً له. وفي ذروة أشواقه قفز في الفراغ نحو الكوكب. ولكن في لحظة القفز التمعت في ذهنه فكرة: «إنه مستحيل». فسقط على الشاطىء محطماً. لم يفهم كيف عليه ان يحب. ولو انه في لحظة القفز تمتع بإيمان قوي بإمكانية تحقيق حبه لحلق في الأعالي ولاتّحد مع النجم.

وأضافت: «الحب يجب ان لا يتضرع أو يطلب. يجب ان تكون لدى الحب من القوة ما يجعله واثقاً من نفسه ومكتفياً بها وعندها لا يكتفي بأن يكون منجذبا بل يصبح جذاباً. وحبك يا سنكلير منجذب إليّ. وحالما يبدأ في جذبي فإنني سوف آتي. أنا لن أجعل من نفسي منحة بل يجب أن أُكتسب».

وفي مرة أخرى حكت لي قصة مختلفة عن عاشق لم يستجب لحبه. فتقوقع على نفسه نهائياً وهو يعتقد أن حبه سوف يستهلكه. صار العالم بالنسبة له مفقوداً ومنسياً. لم يعد يلحظ السماء الزرقاء والغابات الخضراء، ولم يعد يسمع خرير المياه. صُمّت أذناه عن نغمات القيثارة: لم يعد هناك ما يثير اهتمامه. وصار فقيراً وتعيساً. لكن حبه ظل يزداد. وكان يود لو انه يموت أو يتحطم ولا يتخلى عن رغبته في امتلاك تلك المرأة الجميلة. بعد ذلك أحس ان عاطفته قد التهمت كل ما في أعماقه. وصارت قوية وجذابة إلى درجة ان المرأة الجميلة كان لا بد لها ان تتبعها. جاءت إليه وكان يقف ماداً ذراعيه مستعداً لشدها إليه وفيما كانت واقفة أمامه تحولت تحولاً كاملاً، وبرهبة كبيرة راح يحس ويرى انه يستعيد كل ما كان قد خسره في الماضي وقفت أمامه مستسلمة له فجاءت إليه السماء والغابة والجدول زاهية بألوان جديدة لامعة. وكلها له. وكلها تحدثه بلغته هو. وهكذا بدل الظفر بالمرأة وحدها استطاع أن يعانق العالم كله. وكل نجم في السماء كان يشع في أعماقه ويتألق غبطة في روحه. لقد أحب نفسه ووجدها. ولكن معظم الناس يحبون فيخسرون أنفسهم.

صار حبي لفراو إيفا يملأ حياتي كلها. إلا انه، في كل يوم، كان يظهر نفسه بمظهر مختلف. كنت أحس أحياناً بالثقة في أنها ليست هي، كشَخص، من

انجذب إليه وأتوق إليه بكياني كله بل انها غيرموجودة إلاكمجاز لنفسي الداخلية، مجـاز غرضه الوحيد ان يقودني أعمق فأعمق داخل نفسي. وكانت الأشياء التي تقولها تبدو كإجابات من لا وعيي على الأسئلة التي تعذبني. وتمر لحظات أخرى أكون فيها جالساً إلى جانبها والرغبة الجسدية تحرقني فأقبل الأشياء التي تلمسها. وشيئاً فشيئاً بدأ الحب الجسدي والروحي، الواقع والرمز، يتمازجان. ثم يحدث أن أكون في غرفتي بالبيت أفكر فيها في استرخاء ودود فأحس بيدها في يدي وبشفتيها تلمسان شفتي. أو أكون في بيتها وأتطلع إلى وجهها وأنا أسمع صوتها فلا أعرف ما اذا كانت حلماً أم حقيقة. وبدأت أحدس بالكيفية التي يتملك بها المرء حباً بشكل دائم وإلى الأبد. وتأتيني ومضة إشراق وأنا أقرأ كتاباً ـ ويكون لهذا طعم قبلة إيفا نفسه. كانت تربت على شعري وتبتسم لي بمحبة. وكان هذا يبدو لي مثل خطوة جديدة نحـو نفسي. كل ما هو مهم بالنسبة لي ومليء بالقدر كان يأخذ شكلها. كانت تستطيع ان تحول نفسها إلى كل فكرة من أفكاري. وكل فكرة من أفكاري كان تتجسد في هيئتها.

بدأت أقلق مع اقتراب عطلة عيد الميلاد ـ كان يجب ان أقضيها في بيت والديّ ـ لأنه سيكون من المؤلم جداً لي أن أبتعد عن فراو إيفا أسبوعين كاملين. ولكن الأمور لم تكن كذلك. كان من المفرح أن أتواجد في البيت وأن أفكر فيها. وحين عدت إلى (هـ.) انتظرت يومين قبل الذهاب لرؤيتها وكأنني أريد أن أستمتع بهذا الأمان. بهذا الاستقلال عن وجودها المادي. حلمت أحلاماً أيضاً تحقق فيها اتحادي معها عبر أفعال رمزية جديدة. كانت هي المحيط الذي اتدفق فيه. كانت هي النجم وأنا النجم الآخر الساعي إليه وكل منا يدور حول الآخر. وقد حكيت لها هذا الحلم عندما زرتها أول مرة. فقالت بهدوء: هذا حلم جميل. دعه يتحقق.

ثم جاء يوم في مطلع الربيع لم أستطع طوال حياتي أن أنساه. دخلتُ الردهة الأمامية وكانت هناك نافذة مفتوحة يساعد تيار من الهواء يتدفق منها على نقل أريج الزنبق المفعم. ولما لم يكن هناك أحد صعدت الى مكتب ماكس دميان. نقرت نقرة خفيفة على الباب، كعادتي، ثم دخلت دون أن أنتظر جواباً.

كانت الغرفة معتمة، والستائر، كلها، مسدلة. وكان الباب المؤدي الى الغرفة المجاورة مفتوحاً. وفي هذه الغرفة أقام ماكس مختبراً كيماوياً. ومنها كان يأتي الضوء الوحيد. ظننت انه ليس هناك أحد ففتحت أحدى الستائر.

ورأيت ماكس مسترخياً على كرسي صغير قرب النافذة ذات الستائر المسدلة. وقد بدا متغيراً جداً. فخطر لي: لقد رأيت هذا من قبل! كانت يداه متدليتين بليونة؛ كفاه في حضنه. ورأسه محني الى الأمام قليلاً، وعيناه، على الرغم من أنهما مفتوحتان، إلا أنهما كانتا غير مبصرتين وميتتين، وفي بؤبؤ إحدى عينيه كما لو انه في قطعة من الزجاج كان شعاع من الضوء يهز الحدقة فيغلقها ويفتحها ثم يغلقها ويفتحها. كان الوجه الشاحب غارقاً في ذاته دون أي تعبير إلا سكونه الراسخ كان يشبه قناع حيوان مغرق في القدم على مدخل معبد. ولم يبد عليه انه يتنفس.

هيمن عليّ الذعر فخرجت من الغرفة ونزلت الدرج. وعند مدخل الردهة التقيت بفراو إيفا، وكانت شاحبة ومنهكة الأمر الذي لم أشاهدها عليه من قبل. في تلك اللحظة مر خيال على النافذة وسرعان ما غاب الوهج الأبيض الصادر عن الشمس.

همست متعجلاً: كنت في غرفة ماكس. هل حدث شيء؟ إنه إما أن يكون نائماً أو غارقاً في نفسه. لا أعرف. لقد رأيته في هذه الحالة مرة من قبل.

وسألتني بسرعة: لم توقظه. أليس كذلك؟

ـ لا انه لم يسمعني. لقد غادرت الغرفة فوراً. قولي لي ما المسألة؟ ما باله؟

مسحت بظاهر كفها على حاجبيها وقالت: لا تقلق يا سنكلير. لن يحدث له شيء. لقد انسحب. وسينتهي الأمر بسرعة.

نهضت وخرجت الى الحديقة ـ على الرغم من ان المطر كان قد بدأ بالهطول. وشعرت انها لا تريد ان ارافقها ولذا رحت أتمشى في الردهة، وأستنشق عبير الزنبق المذهل، وأتطلع الى صورة طائري المعلقة فوق المدخل وأتنفس الجو الخانق الذي كان يملأ البيت هذا الصباح. ماذا هناك؟ ماذا حدث؟

لم تغب فراو إيفا طويلاً. وكانت قطرات المطر عالقة بشعرها الأسود، جلست في كرسيها. بدا أنها قلقة. تقدمت منها وانحنيت فوق رأسها والتقطت المطر عن شعرها بشفتي. كانت عيناها براقتين وهادئتين ولكن كان لقطرات المطر طعم الدموع.

سألتها هامساً: هل اذهب وأطمئن عليه؟

فابتسمت بضعف: « لا تكن طفلاً يا سنكلير» أنّبتني بصوت مرتفع وكأنها تريد أن تحطم هاجساً في أعماق نفسها. «اذهب الآن وعد فيما بعد. لا أستطيع التحدث إليك الآن».

بين المشي والركض غادرت البيت والمدينة متجهاً إلى الجبال. كان المطر الناعم يهمي على وجهي والغيوم المنخفضة تمضي وكأنها مثقلة بالخوف. أما على الأرض فلا يكاد الهواء يتحرك بينما في المناطق العليا بدا وكأن عاصفة تهب. وأكثر من مرة كانت الشمس الشاحبة تخترق، لوهلة، الشقوق الموحشة في الغيوم الرمادية الفولاذية.

ثم عبرت السماء غيمة صفراء متراخية واصطدمت بالغيوم الرمادية الأخرى. وخلال ثوان قامت الريح بتصميم شكل من هذه الكتلة الصفراء والزرقاء الرمادية، طائر جبار حرر نفسه منطلقاً من تلك الهيولى الزرقاء الفولاذية وانطلق في الأجواء بخفقات كبيرة من جناحيه. وعندها صارت العاصفة مسموعة بوضوح وراح المطر ينهمر مصحوباً بالبرد. وفرقعت زمجرة خاطفة مخيفة وغير معقولة على الأرض التي يزخ المطر فوقها وبعدها فوراً تألق ضوء الشمس، على الجبال القريبة كان الثلج الشاحب يشع مزرقاً، وموحياً فوق الغابة الرمادية.

بعد ساعات حين عدت مبللاً مشعثاً فتح لي دميان بنفسه.

صعدت معه الى غرفته. كان هناك أنبوب غازي مشتعل في مختبره، وكانت الاوراق مبعثرة على الأرض، من الواضح انه كان يشتغل.

دعاني قائلاً: «اجلس» لا بد انك منهك. لقد كان الطقس رهيباً. يستطيع المرء ان يرى بوضوح انك كنت في الخارج. سيكون الشاي جاهزاً فوراً».

بدأت بتردد: هناك شيء ما اليوم. لا يمكن ان يكون مجرد عاصفة رعدية.

تطلع اليّ مستفهماً: هل رأيت شيئاً؟

ـ نعم. رأيت صورة في الغيوم وكانت، لوهلة، واضحة جداً.

ـ أية صورة؟

ـ صورة طائر.

ـ صورة باشق؟ طائر أحلامك؟

ـ نعم، إنه باشقي. كان أصفر وكبيراً جداً وقد انطلق وسط الغيوم السوداء والمزرقة. وأطلق دميان تنهيدة عميقة.

قرع الباب وأدخل الخادم العجوز الشاي.

ـ تفضل يا سنكلير. لا أظن انك رأيت الطائر بالمصادفة فقط.

- بالمصادفة؟ وهل يرى المرء أموراً كهذه بالمصادفة؟

أبداً. لا يرى بالمصادفة. للطائر أهميته. أتعرف ما هي؟

لا ولكنني أحس انه يمثل حدثاً جللاً، تحركاً نحو جزء من المصير. وأظن انه يعنينا جميعاً. كان يتمشى جيئة وذهاباً وهو مستثار. وصرخ:

ـ تحرك نحو جزء من المصير! لقد حلمت الليلة الفائتة بالشيء ذاته. وأمي كان لديها حدس يوم أمس يحمل الرسالة ذاتها. حلمت انني أتسلق سلماً مسنوداً على جذع شجرة أو برج. وحين وصلت أعلاه رأيت السهل كله مشتعلاً ـ سهل كبير يحتوي على مدن وقرى لا تحصى لا أستطيع الآن أن أحكي لك الحلم كله. كل شيء فيه ما يزال مشوشاً بعض الشيء.

- أو تعتقد أن الحلم يعنيك شخصياً؟

طبعاً ما من أحد يحلم حلماً إلا ويعنيه شخصياً. ولكنه لا يعنيني وحدي، معك حق. إنني أميز بدقة شديدة بين الأحلام التي تكشف عن تحركات داخل روحي وبين غيرها من الأحلام الأخرى النادرة التي يطرح فيها مصيرالبشرية كلها نفسه. نادراً ما رأيت أحلاما كهذه، ولم يسبق لي أبداً ان رأيت حلماً مما يمكن ان اعتبره نبوءة تحققت. ان التفسيرات مشكوك فيها جداً لكنني أعرف،

واثقاً، انني حلمت بشيء لا يعنيني وحدي. فهذا الحلم مرتبط بالأحلام الأخرى، الأحلام السابقة التي رأيتها، وهذا الحلم تتمة لها. وهذه، يا سنكلير، هي الأحلام التي تعبئني بالانذارات التي حدثتك عنها. أنا وأنت نعرف ان العالم مهترىء ولكن ليس هذا بالسبب الذي يدعو الى التنبؤ بانهياره الفوري او بشيء من هذا القبيل. غير انني منذ عدة سنوات رأيت أحلاماً استنتجت منها، او جعلتني أشعر، ان انهيار العالم القديم أمر صار وشيك الوقوع. في البدء كانت هذه الأحلام تلميحات ضعيفة وبعيدة ولكنها تدريجياً بدأت تصير أقوى وأكثر وضوحاً. وما أزال لا أعرف إلا ان «شيئاً ما» سيحدث وعلى نطاق واسع. وهو شيء رهيب أنا نفسي سأكون معنياً به. إننا سنشارك في هذا الحدث الذي ناقشناه كثيراً. العالم يريد أن يجدد نفسه. ان رائحة الموت تملأ الهواء. إذ لا شيء يمكن ان يولد قبل ان يموت أولاً لكنه اكثر رهبة مما كنت أظن.

تطلعت إليه مذعوراً، ثم سألته خجلاً:

ـ ألا تستطيع ان تحكي لي بقية حلمك!

هز رأسه لا

وفتح الباب لتدخل منه فراو إيفا.

ـ آمل انكما لستما حزينين.

كانت منتعشة وقد زالت عنها معالم التعب كلها. ابتسم لها دميان فتقدمت إلينا مثلما تتقدم أم من ولدين خائفين.

ـ لا لسنا حزينين يا أمي. كنا فقط نحاول أن نحلل النذر الجديدة. ولكنها غير مفيدة. أياً كان ما سيحدث فانه سيحل فجأة. وعندها سنعرف بسرعة ما نحتاج الى معرفته.

غير انني أحسست بالاكتئاب، وعندما استأذنت للانصراف ومشيت وحدي عبر الردهة بدت لي رائحة الزنبق القديمة شبيهة برائحة الجيف. لقد سقط علينا ظل.

٨ ـ النهايـة تبتـدىء

أقنعت والديَّ بالسماح لي بالبقاء في (هـ.) في العطلة الصيفية. كنت، وأصـدقـائي، نقضي معظم وقتنا في الحديقة المجاورة للنهر بدلاً من البقاء في البيت. وكـان اليابـاني الـذي هزم في المـلاكمـة قد رحل، وذهب أيضاً تلميذ تولستـوي. وجلب دميان حصاناً وصار يذهب في رحلات ركوب طويلة يوماً بعد آخر. ولذا فكثيراً ما كنت أبقى وحدي مع أمه.

كانت تمر عليّ أوقات أندهش فيها من الهدوء الذي يخيم على حياتي. كنت قد تعودت منذ وقت طويل على البقاء وحيداً، وعلى العيش منكراً لذاتي، وعلى مقارعة المتاعب المرهقة بعنف، بحيث ان هذه الأشهر في (هـ.) بدت لي وكأنني في جزيرة احلام سحرية سمح لي عليها أن أعيش حياة مريحة بديعة وسط عالم جميل وممتـع. وكـان لديّ حدس بأن هذا هو الـطَّعم المسبق للعـالم الأجمل والأسمى الذي تكهنا به طويلاً، ولكن هذه السعادة كانت قادرة في أية لحظة على توليد تعاسة عميقة لديّ لأنني كنت أعرف انها سعادة لن تدوم. لم يكن مقدراً لي أن أعرف الامتلاء والراحة، فقد كنت أحتاج الى تحريض السرعة المعذّبة. وكنت أشعر انني، ذات يوم، لا بد سأستيقظ من هذه الصور المحبوبة المرتبطة بالجمال والسكون، وأصبح وحيداً، مرة أخرى، في عالم بارد حيث لا يكون لي الا العزلة والصراع ـ لا سلام ولا استرخاء ولا حياة رغيدة أيضاً.

وفي تلك اللحظات كنت أستكين، بفرح مضاعف، قرب فراو إيفا وأنا سعيد لأن قدري مازال يحتوي على هذه الملامح الجميلة أو الوديعة.

ومرت أسابيع الصيف بسرعة ودون احداث وكادت العطلة تنتهي وهذا يعني اقتراب الوقت الذي سأغادر فيه. لم أجرؤ على التفكير في الأمر فظللت متعلقاً بكل يوم جميل مثلما تتعلق الفراشة بالوردة المعسّلة. كانت هذه أيامي السعيدة، وأول تحقيق لشيء في حياتي، وقبولي في تلك الدائرة الودودة المنتقاة ـ ما الذي سيأتي لاحقاً؟ سأخوض معاركي من جديد، وأعاني من أشواقي القديمة وأحلم أحلامي وأصير وحيداً.

وذات يوم انبعثت فيَّ توجساتي بقوة جعلت حبي لفراو إيفا يتوهج مؤلماً في أعماقي، يا إلهي كم اقترب فراقي عنها، حيث لن أراها بعد ذلك ولن أسمع خطواتها. الواثقة العزيزة في البيت ولن أجد زهورها على طاولتي. وما الذي حققته؟ لقد حلمت وعشت في دعة الأحلام والرضا، بدل الفوز بها، بدل السعي لشدها اليّ الى الأبد. عاد إليّ كل ما قالته لي عن الحب الحقيقي. مئة تحذير رقيق، ومثلها من الإغراءات اللطيفة، والوعود ربما ما الذي فعلته بها كلها؟ لا شيء. لا شيء على الإطلاق.

ذهبت الى وسط غرفتي ووقفت ساكناً في محاولة لتركيز وعيي كله على فراو إيفا مستدعياً كل قوة في روحي لكي أجعلها تشعر بحبي ولكي أشدها إليّ. لا بد أن تأتي. لا بد ان تشتاق الى عناقي. وقبلتي يجب ان ترتعش بنهم على شفتيها الناضجتين.

وقفت وركزت طاقتي كلها الى أن شعرت بالبرد يزحف صاعداً من أصابع قدمي ويدي. وشعرت بالقوة تشع مني. وللحظات شعرت بشيء يتقلص في داخلي، شيء ما براق وبارد له ملمس الكريستال في قلبي ـ وعرفت انه «ذاتي». وصعدت الرعشة الباردة الى صدري.

بعد التخلص من هذا التوتر الرهيب شعرت ان شيئاً ما سيحدث، لقد كنت مرهقاً جسدياً ولكنني كنت مستعداً لمشاهدة إيفا تخطو الى الغرفة، وهي مشعة

ونشوانة.

كان من الممكن سماع وقع الحوافر وهي تقترب في الشارع. كانت قريبة ورنانة ثم توقفت بغتة. قفزت إلى النافذة فرأيت دميان يترجل، ركضت إليه.

ـ ما الأمر يا دميان؟

لم يهتم لكلماتي. كان شاحباً جداً والعرق يتصبب على خديه. ربط رسن جواده المتعرق بسياج الحديقة وأمسكني بذراعي ثم سار معي نحو الشارع.

- هل سمعت؟

لم أكن قد سمعت بشيء.

ضغط دميان على ذراعي ثم حول وجهه اليّ وبنظرة كئيبة وحنون في وجهه قال:

ـ نعم. بدأ الأمر. سمعت عن المشاكل مع روسيا.

- ماذا؟ أهي الحرب؟

تكلم بصوت منخفض جداً على الرغم من ان أحداً لم يكن إلى جانبنا:

- لم تعلن الحرب بعد. ولكن ستكون هناك حرب. ثق بكلامي. لم أشأ أن أقلقـك لكنني رأيت نذراً ثلاث مرات منذ ذلك الحين. الأمر إذن ليس نهاية العالم، ليس هزة أرضية ليس ثورة بل هي الحرب. سترى أي حدث مثير سيكون. سيحبه الناس. منذ الآن لم يعد في وسعهم انتظار ان يبدأ القتل ـ ان حياتهم تافهة بهذا المقدار. ولكنك سترى، يا سنكلير، ان هذه هي البداية فقط. قد تكون حرباً كبيرة جداً، على مستوى هائل. ولكنها، مع ذلك، ستكون مجرد بداية. لقد بدأ العـالم الجـديد. وسيكـون هذا العـالم الجديد رهيباً بالنسبة لأولئك المتعلقين بالقديم. ما الذي ستفعله؟

صعقت. كان الأمر بالنسبة لي غريباً جداً وغير متوقع.

ـ لا أعرف. هل تعرف أنت؟

هزَ كتفيه.

ـ سوف أُستدعى حالما يصدر قرار التعبئة. أنا ملازم.

- أنت ضابط! لم تكن لديّ فكرة.

- نعم. تلك كانت إحدى صيغ التسوية التي لجأت اليها. أنت تعرف انني لا أحب لفت الانتباه إلى نفسي الى درجة انني وصلت الى الطرف الأقصى الآخر لمجرد إعطاء الانطباع الصحيح. اعتقد انني سأكون في الجبهة خلال اسبوع.

- يا الهي.

- لا داعي للعواطف. ليس لهواً بالطبع توجيه الأمر الى الناس لقتل غيرهم. لكن هذا أمر عرضي. ان كلاً منا سيكون عرضة لسلسلة الأحداث وأنت أيضاً سوف تنجرف بالتأكيد.

- وماذا سيحدث لأمّك يا دميان؟

الآن فقط تحولت أفكاري الى ما كان قد حدث قبل ربع ساعة. كم تغير العالم في هذه الفترة البسيطة! كنت قد استدعيت قوتي كلها لاستحضار أحلى الصور، والآن يتطلع اليّ قدري بقناع متوعد رهيب.

- أمي؟ ليس علينا ان نقلق بشأنها. ! ستكون في أمان أكثر من أي شخص آخر في العالم. أتحبها الى هذه الدرجة؟

- ألم تكن تعرف؟

ضحك ضحكة خفيفة مستريحة.

- طبعاً كنت أعرف بغتة أرسلتني قائلة ان عليّ أن أراك. لقد أخبرتها لتوي عن أخبلر روسيا.

عدنا وتبادلنا عدة كلمات أخرى. فك دميان رسن جواده وامتطاه.

حين صعدت الى غرفتي أدركت كم ان أخبار دميان، وأكثر من ذلك التوترات السابقة، قد ارهقتني. ولكن فراو إيفا قد سمعتني! وصلت أفكاري الى قلبها. كان من الممكن أن تأتي بنفسها ـ لو. كم كان هذا كله غريباً، والأهم من ذلك كم هو جميل. والآن من المتوقع اندلاع الحرب. سوف يبدأ ما كنا قد تحدثنا عنه كثيراً. كان دميان قد عرف الكثير مسبقاً. وكم هو غريب ان تيار العالم لم يعد يتجاوزنا، وانه سرعان ما ستأتي اللحظة التي سيحتاج الينا العالم فيها، وسيحاول

ان يتحـول. كان دميان على حق، لا يمكن ان يكون الانسان عاطفياً تجاه أمر كهـذا. الأمـر البـارز الوحيد هو انني سأشارك آخرين في الجانب الشخصي من قدري، سأشارك العالم كله. حسن فليكن.

كنت على أتم الاستعـداد. وحين مشيت في البلدة مساء كانت كل زاوية شارع مليئة بالطنين. وفي كل مكان كلمة «حرب».

ذهبت الى مسكن فراو إيفـا، تنـاولنـا العشـاء في المنزل الصيفي. كنت الضيف الوحيد. ولم يقل أحد كلمة واحدة عن الحرب. في النهاية، وقبل مغادرتي بقليل، قالت فراو إيفا: «عزيزي سنكلير. لقد استدعيتني اليوم. وأنت تعرف لِمَ لَمْ آتِ بنفسي. ولكن لا تنس انـك تعرف النداء الآن وكلما احتجت أحداً ممن يحملون العلامة تستطيع ان تستنجد بي».

نهضت وتقـدمتني في ضوء الحديقة الخافت. وراحت تنقل خطواتها بين الأشجار بطولها وأبهتها.

هاأنذا أصل الى نهاية قصتي. لقد مرّ كل شيء بسرعة منذ ذلك الحين. سرعان ما جاءت الحرب وغادرنا دميان ببذلته الغريبة غير المألوفة. ورافقت أمه الى البيت، ولم يمر وقت طويل حتى ودعتها بدوري. قبّلتني على فمي وشدتني قليلاً الى صدرها. وراحت عيناها الكبيرتان تتألقان في عينيَّ وهما قريبتان وثابتتان.

يبدو أن الناس كلهم قد صاروا أخوة ـ بين عشية وضحاها. صاروا يتحدثون عن «الوطن الأم» وعن «الشرف» ولكن ما كان يختفي خلف هذا الكلام هو قدرهم الـــذي رأوا، كلهم، وجهه السافر للحظة عابرة وسريعة. راح الشبان يغادرون ثكنـاتهم وينحشـرون في قطارات، وعلى وجـوه كثيرة كنت أرى علامة ـ ليست علامتنا ـ بل علامة جميلة وكريمة على الرغم من انها تعني الحب والموت. وأنا، أيضـاً، عانقني أناس لم يسبق لي ان رأيتهم من قبل، وكنت أفهم هذه الاشارة وأستجيب لها. ان النشوة تجعلهم يفعلون ذلك وليس الشوق لمصيرهم، ولكن هذه النشوة قدسية، فهي نتيجة لكونهم جميعاً قد تطلعوا بتلك النظرة السريعة المقلقة والرهيبة الى عيني قدرهم.

قبيل الشتاء أرسلت الى الجبهة. وعلى الرغم من الإثارة في كوني تحت النار للمرة الأولى، فان كل شيء كان مزعجاً لي. ذات يوم صرفت الكثير من التفكير حول سبب عجز الناس غالباً عن ان يعيشوا من أجل مثل أعلى. أما الآن فقد رأيت ان الكثيرين، بل الناس كلهم، قادرون على ان يموتوا من أجل مثل أعلى. غير انه لا يمكن ان يكون مثلاً أعلى شخصياً ومنتقى بحرية؛ بل هو ذلك الذي يقبل بالمشاركة.

ومع مرور الوقت أدركت انني كنت قد أسأت تقدير قيمة هؤلاء الناس. وعلى الرغم من أنّ الخطر المشترك والعمل المشترك كانا يصنعان منهم كتلة متراصة إلا انني ظللت أرىٰ كثيرين يتقدمون لتلبية ارادة القدر باعتزاز كبير. وكثيرون، كثيرون جداً، ليس فقط في لحظة الهجوم بل في كل لحظة من لحظات النهار، كانت لديهم في عيونهم نظرة نائية مصممة والى حد ما مأخوذة لا تعرف شيئاً عن الأهداف وتشير الى استسلام كامل لما لا يصدق. ومهما كان ما يفكرون أو يؤمنون به فقد كانوا دائماً مستعدين، قابلين للاستخدام. إنهم الطين الذي يمكن تشكيل المستقبل منه. وكلما زاد العالم، ومن رؤية وحيدة الجانب، تركيزه على الحرب والبطولة، على الشرف والمثل الأخرى القديمة؛ صارت أية همسة صادرة عن الانسانية الأصيلة أكثر نأياً ولا معقولية ـ وكان هذا كله مجرد سطح؛ مثلما ان السؤال عن اهداف الحرب الخارجية والسياسية يظل سطحياً. ولكن في الأعماق الدنيا كان هناك ما يتشكّل؛ شيء قريب من إنسانية جديدة. فلقد كنت أرى كثيرين ـ وكثيرون ماتوا إلى جانبي ـ ممن بدأوا يشعرون بحدة ان الكراهية والحماس، والمذابح والإبادة ليست مرتبطة بهذه الأهداف. لا هذه الأهداف والغايات كانت تصادفية تماماً. وأكثر المشاعر بدائية. وحتى أكثرها وحشية، لم تكن موجهة ضد العدو. كانت مهمتهم الدموية مجرد فيض من الروح، الروح المنقسمة على نفسها، والتي تملأ أعطافهم بشهوة النقمة والقتل، والابادة والموت، لعلهم يولدون من جديد.

ذات ليلة في أوائل الربيع كنت أقف حارساً أمام مزرعة كنا قد احتللناها. وكانت ريح قلقة تهب بشكل متقطع، وفي السماء الفلمنكية كانت جيوش الغيوم

تتقاطر، ووراءها في مكان ما كان هناك شبح قمر. طوال النهار كنت أحس بالانزعاج ـ كان هناك شيء ما يقلقني. والآن في موقع حراستي المعتم رحت أستذكر بحماس صور حياتي وأفكر في فراو إيفا ودميان. كنت أقف مستنداً إلى شجرة حور وأنا أحدق إلى الغيوم المتدفقة التي سرعان ما تجسدت نتفها ذات الضوء الذاوي بغموض في هيئة سلسلة من الصور المتداخلة في دوامة. ومن ضعف نبضي الغريب، وانعدام حساسية بشرتي تجاه الريح والمطر، وحالة وعيي الحاد حدست بوجود رئيس الى جانبي.

كان من الممكن رؤية مدينة ضخمة بين الغيوم يتدفق منها ملايين من البشر في حشود على منسبط شاسع. ووسطهم كان شخص عظيم ذو هيئة الهية كبير مثل سلسلة جبال. انه انثى والنجوم المتلألئة مشبوكة بشعرها ولها ملامح فراو إيفا. وراحت صفوف الناس تغيب فيها، مثلما تغيب في كهف عظيم، وتختفي عن الانظار. وجثمت الآلهة على الأرض والعلامة تلمع على جبهتها، وبدا ان حلماً يتأرجح فوقها. أغمضت عينيها وراحت ملامحها تتقلص ألماً. وبغتة صرخت فنفرت من جبهتها نجوم، آلاف من النجوم، شكلت أقواساً عجيبة وأنصاف دوائر في تلك السماء المعتمة.

واندفع واحد من هذه النجوم نحوي مصحوباً بصوت مرنان وكأنه يبحث عني ثم تشظى متفجراً بصوت رهيب الى آلاف من الشرارات، فقذف بي عالياً ثم ألقي بي على الأرض من جديد! وتفجر العالم من فوقي كالرعد.

عثروا عليّ قرب شجرة الحور مغطى بالتراب وبي جراح عديدة.

استلقيت في قبو، والمدافع تهدر من فوقي. ثم استلقيت في عربة راحت ترتج بي في ميادين خالية. ومعظم الوقت كنت نائماً أو فاقد الوعي. ولكن كلما تعمق نومي كنت احس انني منجذب بقوة اكبر. ومرة اخرى استلقيت في عربة ثم على نقالة او سلم. وبقوة أكبر مما سبق أحسست أنني أُستدعى الى مكان ما. ولم أعد أحس الا بالدافع يدفعني للذهاب الى هناك.

وأخيراً وصلت غايتي. كان الوقت ليلاً وكنت في وعيي الكامل. وكنت قد أحسست بالدافع يتحرك بقوة في داخلي. صرت في قاعة طويلة، وتمددت على فراش ممدود على الأرض. وأحسست انني وصلت الى الغاية التي كانت تستدعيني. التفتُّ برأسي. قريباً من فراشي كان شخص آخر يستلقي. شخص كان ينحني الى الأمام ويتطلع إليّ. كانت على جبهته علامة. انه ماكس دميان.

لم استطع أن أتكلم. وهو لم يستطع أو لم يشأ أن يتكلم. كان يتطلع إليّ فقط. وضوء المصباح يسقط على الجدار فوقه ويتلاعب على وجهه. وابتسم.

حدق الى عيني لفترة بدت انها لن تنتهي. وببطء قرب وجهه من وجهي فكدنا نتلامس.

ـ «سنكلير!» قال هامساً.

وبتطليعتي أبلغته أنني سمعته.

ابتسم ثانية بما يشبه الشفقة.

ـ «ايها الصديق الصغير» قال وهو يبتسم.

كانت شفتاه قريبتين من شفتي. وبهدوء تابع كلامه. سألني:

ـ هل تستطيع ان تتذكر فرانز كرومر؟

غمزت له وابتسمت بدوري.

ـ اسمع يا سنكلير الصغير: انني راحل. ربما احتجت اليّ ذات يوم مرة اخرى؛ ضد كرومر أو أي شيء آخر. فاذا ناديتني لن آتي بشكل ملموس، على ظهر جواد أو في قطار. سيكون عليك أن تنصت الى أعماقك وعندها ستكتشف انني في داخلك. هل تفهم؟ وهناك شيء آخر. قالت فراو إيفا: إذا ما كنت في وضع سيء فإن عليّ أن أمنحك قبلة أرسلتها لك معي. اغمض عينيك يا سنكلير!».

أغمضت عيني طائعاً. وأحسست بقبلة خفيفة على شفتي حيث كان دائماً هناك قليل من الدم الطازج الذي لن يزول. ثم غرقت في النوم.

صباح اليوم التالي أيقظني أحدهم: يجب ان أضمد جراحي. وحين استيقظت تماماً التفت بسرعة الى الفراش المجاور. كان عليه شخص غريب لم يسبق لي أن رأيته.

كان تضميد الجرح مؤلماً. وكل ما حدث لي بعدها كان مؤلماً. ولكن حين أعثر على المفتاح، أحياناً، وأتعمق في نفسي حيث تسترخي صور قدري في المرآة المعتمة لا يكون عليّ إلا أن أنحني فوق تلك المرآة المعتمة لأتملى صورتي، وقد أصبحت الآن تشبهه شبهاً تاماً؛ تشبهه هو، أخي، وسيدي.



دميان

قصة شباب إميل سنكلير

في نهاية الكتاب، في العام ١٩١٤، يقول «دميان» لصديقه «سنكلير»:

«ستقع الحرب حتماً. . ولكن سوف ترى يا سنكلير أنها لن تكون سوى البداية. لربما ستكون حرباً كبيرة كبيرة. . لكنها ايضاً لن تكون سوى البداية. إن زمناً جديداً يبدأ. . وسيبزغ منه عالم جديد مخيف. مخيف لأولئك الذين لا يزالون مرتبطين بالماضي. وأنت. . ما الذي ستفعله؟»

إن الجواب الصحيح على هذا السؤ ال هو: «سأساعد العالم الجديد على الولادة. . إنما دون التضحية بالقديم».

لقد كتب هيسّه رواية «دميان» بنثر ملتهب، وهو في أوج نضوجه. إنه كتاب صغير الحجم، ولكن الكتب صغيرة الحجم هي التي تتمتع غالباً بالدينامية الأكثر غنى. ومن الواضح أن هيسّه قد أدرك أن عمله هذا إنما يتخذ سمة كونية. هذا ما يشهد عليه العنوان الفرعي للرواية والمبهم: «حكاية شباب». مبهم لأنه قد يشمل حكاية شباب بالمعنى الفردي، وكذلك حكاية جيل بكامله من الشباب. ولم يشأ هيسّه أن تصدر الرواية حاملة اسمه، بل اختار لتوقيعها اسماً مستعاراً هو «سنكلير» المقتبس من عالم «هولدرلن». ولم يضع توقيعه عليها الا منذ طبعتها ال[illegible]ثرة.

كانت «دميان» رواية لمست[illegible]علة بدقة مثيرة، وصورت بحس معرفي صورة شبيبة بأكملها [illegible]ين صفوفها ذلك البطل الذي تجسدت فيه آمالها ال[illegible]

«توماس مان»

دار منارات للنشر
هاتف ٦٦١٣٢٨ ص.ب ٩٢٥٠٦٢ عمان - الأردن